

رواية قصيرة

أحببتُ شيطانة

فسرقت مني الحب

الكاتب

إبراهيم الشمالان

سقط الحب من علاقتنا الكئيبة كسقوط بتلات زهرة
الكرز من شجرتها تقطع مسافة السقوط إلى الأرض
بهدوء بهدوء شديد كنت أظن أن هذه العلاقة ستدوم
طويلا بنينا قصور الأحلام وزيناها بزهور المواعيد
والآمال وسبحت من حولها طيور العشقتعزف لنا
وتتشدد.. ولازات الأزمات تشتد.. حتى أرهقنا النسيان

في كل لحظة أتذكر بعض الرسوم وبعض الحكايا
والمواقف وأعصر بيدي ذاكرتي كعصر الليمون
عندما نفتقد لآلة العصر، نشد عليها بأصابعنا ونسند
اليد إلى اليد حتى تخرج بضع قطرات من العصير
الحامض ..

ربما عشتَ حالة الحب سنوات طويلة ، لكن بمجرد
الرحيل وانفصال العلاقة ، وابتعاد المحبوب تنتزع
من عقولنا وقلوبنا تلك الذاكرة ، ذاكرة مريضة
مخروقة تحمل بين أوعيتها دماء سوداء محروقة ..

فترانا نهيمُ على وجوهنا ...

لا نكثرث ولا نشعر بما يدور حولنا وكأننا في دوامة
تشد بنا نحو التيه دون جدوى فربما نرى الظلام
والوعاء ، ونرى الأحلام ممزوجة مع القهوة
السوداء .. لا نستمع إلى أحد ، ونتكلم بصمت ، وكأن
الصوت يختفي تدريجيا كما تختفي الروح عند
الزرع ..

وقف بين يدي (**الخوف** ، **والحقد** ، **والحب** ،
والتسامح)

أكاد أسمعهم وأراهم يتحدثون ويهمهمون أمامي ،
اقتربت منهم لأستمع إليهم ، وأرى ما لديهم ، فكانوا
يتحدثون عني ، بعد الافتراق كيف سأعيش وقد فقدت
أحدهم ..

عندما نعيش حالة حب تمتزج بعظامنا قبل دماننا ،
وقد وصلت إلى آخر ما يمكنها أن تصل إليه من
أجسادنا ، لا بد أن نعرف أنها ليست علاقة حب فقط

بل هي علاقة روح ، لكن الفرق في تأثيرها هي أن الروح إذا انتزعت مات الجسد وأن هذه العلاقة إذا انتزعت **أورثتنا النسيان ، نسيان الزمن ، نسيان النفس ، ونسيان الرحمة ، فلا نرحم أنفسنا ونرهقها بالسهر وهجر الرقاد .**

ليس هناك سبب **للنسيان** لكننا ننسى أنفسنا حينئذ ، وليس هناك سبب لهدم أجسادنا لكن هدم الجسد ليس مهما بعد هدم الروح والقلب ...

أشعر بأني متعب ، مرهق ، لا يروق لي طعم طعام ولا أشعر بمذاقه ، أحيانا أشعر بأني نائم ، ربما سأستيقظ لاحقا ، أو هي غيبوبة طويلة الأمد ، ربما سأستيقظ لأجد من حولي أهلي ، وأصدقائي ، ربما أجد صديقي بجانبني ، فقد توفي في هذا الكابوس ، وربما أجد نفسي ولم تعرف الحب من قبل ولم تتعلّق

بأحد ، هذا كل ما أريد قوله ، لكني لا أستطيع أن
أقرص خدي ، بل لا أجرؤ على فعل هذا خوفا
وترددا ، ولا أستطيع أن أنسى غدرا .

وقد ملأ قلبي الحقد وذهب الحب متمردا ، ولازال
التسامح يعبث بي فأحيانا أرغب بأن أسامحه وأحيانا
أخرى أشعر بضيق شديد فترجح كفة الحقد على
التسامح ويذهب كل شيء ويضيع سدى ، ثم إنني
رأيت الحب يمسك بكفة الميزان من ناحية التسامح
ويشد بها نحو الأسفل ويقول : سينتصر التسامح ..

نسيان وأي نسيان .. كل ما أنكره بعض المواقف
الجيدة ، وبعض الاحتضان ، وبعض الضيق الذي
ازداد بابتعادي عن الأوطان ..

أشعر بحرارة تغزوني وتأكل من كبدي ، أضع يدي
على قلبي فأشعر بنبضاته كأن حربا طاحنة وقعت

فيه وإذا ما حركتها نحو كبدي وجدته وكأن حجرا
أخرج من بركان ، لا أدري لماذا حصل هذا كله
لكنها العاطفة إنها بخار حارق لا نستطيع لمسه لكن
له تأثير عظيم بما حوله ، وليس لي إلا شهوة الأذن
أن تسمع سيرته وتطرب بقصصه وذكر اسمه ، لا
أدري ما أقول وكيف صبرت تلك الليالي بجرعات
من النوم القليلة...

بين الوهم والحقيقة وبين الطبيعة والخيال وبين الأمل
والحلم صدقتُ في حبي ، أيُّ جنون هذا أن أعشق
خيالا أو روحا لم تخلق ، لقد أنجبتنا الدنيا فرمتنا بين
أودية الهموم نصارع مشاكلها ونبحث عن الغنى بين
جبال الفقر ، سأمضي وأثبت وجودي وأحقق الوعد
الذي وعدتك إياه .

سأرسم ابتسامة على خديك حتى أرى ابتسامات
كثيرة فابتسامة فمك وابتسامة خدك ثم أعبث بالبسمة
حتى ترين ابتسامة عيني عندما أرى فيهم الحب ،
وابتسامة أذني عندما أستمع إلى حنان صوتك ،
وابتسامة روعي عندما تشمّ عبقاً يخرج من كلماتك ،
لست أعني الشهوة ولست أبالي بها إنما يعنيني وجودُ
كنت أبحث عنه طويلاً .

ليتني أرى حباً صادقاً قبل أن أموت ليتني أراه اليوم
قبل الغد ، تلوّثت سمعة الحب بين يدي أصحاب
الشهوات فصرنا إذا ما ذكرنا الحب امتزجت أفكارنا
بشهوات النفس و رذيلتها .

قد أضع خدي على التراب وأمرّغه حتى تمتزج
الألوان ، فأقوم إلى عزّ ومقام ، فتمتلئ روحي بالحب
ويرتفع شأن قلبي ولا يستهويني أن أكون في عزّ
وارتفاع ثم أهبط إلى القاع ..

أشعر بأن روحي متعبة ، أحتاج لبعض الراحة ، لقد
اشتقت كثيرا لضخّات دمٍ باردة هادئة في عروقي ،
أريد أن أمدّ قدمي على حرير ناعم وأضع رأسي
على وسادة من الغيوم ، أريد أن أنام بدون أحلام لا
أريد أن أحلم كما لا أريد أن أرى ابتسامة أحد ، ألا
ترون أن الكلمات قد اختلفت **وهذا لأنني لا أعلم ماذا**
أريد ، ربما أريد شيئاً لم أراه أو ألمسه ، أريد أن
أعيش ثرياً ولو ليوم واحد ، أريد أن أركب أفخم
سيارة ولو لساعة واحدة ، أريد أن أجلس إلى مائدة
طعام فاخرة بدون أن أتذكر قصة تذكّرني بالألم ، أو
ربما لا يستهويني شيء مما ذكرته بل لا أريد الثراء
فكل شيء يرهقني حتى الفرح والسرور والسعادة ،

كلما صوّرت النعيم كإنسان يقف أمامي رأيت خلفه على سبيل التخيل ضبابا ومن وسطه يصدر صوت يقول : لا تفرح فنعيمك هذا زائل ، أرى كل من حولي يعيش حالة الجنون أو فقدان لذاكرته الضعيفة ، أرى الأمور بعكس ما يرونها ، فهم يرون أن الماء شراب وأن الفاكهة طعام وأن الظلام ليل وأن اشراق الشمس نهار كلهم مخطئون ، نعم إنهم مجانين فأنا فأرى عكس هذا ، هكذا الجنون .. لم أدرك بأني مجنون وأن من حولي على صواب ، عقولهم سليمة ، ليسوا مجانين كما كنت أزعم .. لكنهم كذلك لم يكونوا صادقين لقد كانوا يستخدمون عقولهم ليرهبونا ، ليتعبونا ، ليغدروا بنا ..

صباح يوم الأحد ...

خرج إلى الفران ليأتي ببعض الخبز الساخن ، لم يأكل (ساري) منذ البارحة ، شاب أبيض ، نحيل ، الوجه تحت عينيه اسوداد من أثر السهر ، يرتدي قميصا أكمامه طويلة كادت تغطي أصابع يديه إلى المنتصف ، ورغم طول قميصه إلا أنه يبدوا جيدا وجميلا .

لقد حدث تغيير كبير في هذا الزمان تغيرت ملابسهم وكثرت أشكالها وتنوّعت ألوانها وتغيرت أخلاق من لبسها وأصبحت قيمة المرء بردائه وقد زعموا أن ثوبا يمكن بيعه ليكون ثمنه مصروف أسرة معتدلة في إنفاقها لمدة شهرين أو أكثر .. ولا يهتمنا فقد كان ساري من الذين لا يهتمون بالموديل ، ولا يهتم بمرتديه ..

كان يقضي معظم وقته بالأحلام والذكريات لقد حمل الخبز عائدا إلى بيته يتذكر طفولته ...

عاش طفولته في مكتبة قديمة لأحد رجال القرية كان رجلا يحب المال وقد ورث مكتبة ضخمة عن والده فلما مات جعل يبيع كتب والده واحدا واحدا حتى كاد يفنيها ، كانت كتبا قديمة مهترئة فيها ذكريات وكلمات لكن حامل السيف قد لا يعلم قيمته كالحمار _ أكرمكم _ إذ يحمل مكتبة فوق ظهره لكن لا يهمه إلا بعض التبن والحشائش في آخر الليل ، وقد زعموا أن هذا الرجل قد عاش سنوات من عمره على بيع الكتب دون عمل آخر لكن ساري حاول جاهدا أن يشتري بعض الكتب منه قبل أن يبيعهها ، وكان إذا عاد من مدرسته ذهب إلى السوق ليطلب أي عمل يقوم به فإذا اجتمع لديه بعض المال ذهب مسرعا إلى هذا الرجل ليبحث بين الكتب عن كتيّب صغير يستطيع شراءه .

لا زال ساري يرفع كتابا من هذه الكتب الصغراء القديمة فيسأل الرجل : بكم تباع هذا ؟ فيقول : بـ

١٠٠ فيعيده إلى مكانه لأنه لا يملك ثمن كتابٍ بـ
١٠٠ لقد كانت أكثر الكتب باهضة الثمن رغم أنها
في الحقيقة ليست بهذه الأثمان لكن جشع الرجل
أعمى بصيرته فليس هناك في القرية مكتبة للكتب
ولا حتى في القرى المجاورة ، كانت القرى مهملة
وليس لأهلها قيمة عند أصحاب المدن ، لهذا كان
الرجل يستغل هذا الوضع فرفع أسعار الكتب رغم
أنها مستعملة وقديمة كأنها صحف مهترئة أكلت
ساعات الزمان عليها وشربت ، ولم يفكر هذا الرجل
إلا في طعامه آخر الليل ، وما زالت الأمة تهبط يوما
بعد يوم بسبب أمثال هؤلاء الذين لا يعرفون لطالب
علم قيمة ولا يساهمون في إدخال العلم إلى قلوب
الناس ، ولقد اشترى ساري الكثير من الكتب بعرق
جبينه بينما كان أصدقاؤه يتمتعون بطفولتهم يشتررون
المثلجات والحلويات ويلعبون هنا وهناك ، فإذا عاد
ساري إلى البيت في المساء تناول بعض الطعام
وجلس مع أسرته يحكي لهم بعض الحكايات رغم أنه
صغير وله إخوة أصغر منه لكنهم يحبونه

ويستمتعون بقصصه ، وبعد أن ينتهي يعود ساري ليرى كتبه المدرسية فيرى منهاجه ويحلّ واجباته ولم يكن لديه في الحقيقة غرفة خاصة ، فبيتهم صغير لكن ساري وظّب لنفسه مكتبا في (الصلاة) وضرب ببعض الأخشاب على الجدار ليجعل منها رفوفا يضع عليها كتبه .

كان الضوء خافتا في الصلاة فهي لم تصبغ بعد فقد بنى والده هذا البيت حديثا ولا زال يعمل ليوقرّ بعض المال ليصبغ هذا البيت ولهذا كانت الأضواء خافتة ، كانت عائلته فقيرة ووالده يعمل سائقا لحافلة ينقل فيها الناس وأمتعتهم ولا يرجع حتى منتصف الليل أصبح كالآلة وكثيراً أمثاله فهم لا يستطيعون أخذ قسط من الراحة بعد الغداء فلقد كثر السائقون حتى قلّ الرزق وأصبح والد ساري يكافح لأجل البقاء .

كان لساري أخ صغير دخل في سن الرابعة وأخت في الصف الثاني تدعى لين ، كانت تحب ساري

كثيرا وتحب قصصه وكانت تقلده في كل شيء ،
لكنها كانت كثيرة الحركة والشغب ، تعبت بأشيائه
وتدخل إلى صفه في المدرسة فتضحك تلاميذ الصف
، وكانت أحيانا تخيفهم بالضفادع أو ديدان الأرض ،
كانت تجمعهم من الأرض المجاورة لمنزلهم فهي
رطبة تشققها ساقية صغيرة فتأتي بعلبة الحلوى بعد
فناء ما فيها فتضع فيها بعض التربة الرطبة وتجمع
من ديدان فتخيف بها تلاميذ المدرسة ..

(لازال ساري في طريقه إلى المنزل يتذكر هذه
اللحظات)

(ذكريات ساري)

دَخَلتَ لين في أحد الأيام إلى صف ساري وهي
تحمل علبة فيها ضفدع تحمله بيديها البيضاء
الصغيرة وترفعه نحو الأطفال وهي تضحك بصوت
مرتفع بينما هم يصرخون وقد تجمّعوا في زاوية
الصف متراكمين كأنهم قطعة واحدة بينما جلس

ساري في مقعده ينظر إليهم بطرف عينيه ويقول في نفسه :

ما هذه الفتاة ، من أين لها هذه الجرأة ؟

ثم ناداها : لين ، لين ، تعالي إلي ...

- ما خطبك ، ألم أقل لك لا تدخلني صفي ، لماذا أنتِ عنيدة ؟

- آسفة (قالت هذه الكلمة وقد خفضت رأسها ورحلت البسمة عن وجهها وانقلب إلى وجه عبوس ، أخذ العلبة من يديها وقال لها ضعي الضفدع هنا ، ثم وضع يديه على رأسها وبعثر شعراتها وقال ، أتحيين أخيك ؟

- (هزّت رأسها لكنها لم تتكلم بكلمة واحدة) لم تكن خائفة لكنها ظنّت أن ساري سيضحك ويسرّ عندما تفعل هذا بالأطفال ...

أخذ ساري بيديها ثم قال لها ، هيا بنا إلى المنزل
سنقوم اليوم بجمع الديدان سوية ، لكن بشرط ..

لين : ماهو (وقد غمرتها الابتسامة وجرى نهر
السعادة في وجهها) ؟

ساري : نجمعها ثم نعيدها ولا نأخذها إلى المدرسة
مرة أخرى ..

لين : حaaaضر ، ثم راحت تركض أمامه ، وهو
يبتسم لها .. ما أجملها من فتاة ..

(ولازال ساري يتقدم نحو منزله يحمل الخبز
ويتذكر)

(ذكريات ساري)

لقد تذكر ساري يوم قابل والدته ورأى فيها عبوسا
وحزنا فكانت المحادثة :

- أتخافين ؟

- كلا ، وممّ أخاف يا ولدي ؟

- أتخافين أن ينقطع رزق والدي ؟
- آه ، يا بني لقد لفّ الفقر ذراعيه حول الكثير من بيوت الناس ، كيف لا أخاف والأسواق ترتفع والديون تكثر والناس تزداد جشعا ..

- لا تقلقي يا أمي ، نحن نقلق كثيرا على كوارث لم تقع وعلى هموم لم تأتي ، لكل ساعة قدر ونحن إن كان لنا رزق فليس له مفر ، ثم إننا لا نهتم لو أكلنا خبزا أو لحما ، يكفيننا أن نسد الجوع وأن نوقف صيحات الأمعاء ..

- أنت تتكلم كالكبار يا بني ، من أين تأتي بهذه الكلمات ولازلت صغيرا ؟

- أمي ليس هناك كبير وصغير إنما العظمة تكمن في العقل فمن غذاه أعطاه ومن أهمله خسر ، ثم إنني أقرأ الكتب فأتعلم وليت لي مكتبة ضخمة لألتهم أوراقها التهاما .. أتعلمين يا أمي أن أصحاب المكتبات لا يقرأون شيئا كأن كتبهم زينة أو جزء من

فلسفة
ساري

فلسفة
ساري

الجدران ، ليتتي أستطيع أن أستعير منهم ، لكنهم لا
يستقبلوني ..

- أتؤمن بالله يا ساري ؟

- أوؤمن به وأحبه ، وهو ربي لا إله إلا هو ..

- ولهذا سأقول لك يا بني أن من آمن بالله
سيرشده وسيعطيه ، وستكون لديك مكتبة ضخمة في
يوم من الايام .

- حقا يا أمي ؟

- نعم لكن يجب أن تجتهد وتحسن النية ،
تخيّل يا بني أنك قابلت رجلا كريما جدا طيبا رحيمًا
وطلبت منه شيئا هل سييخل عليك به ؟

- لا أظن أنه سييخل وهو كريم رحيم كما
تقولين .

- والله المثل الأعلى أتظن أنك إذا رفعت يديك
إليه وهو الكريم الرحيم الرزاق هل سيعيد يديك
فارغة ..

- يا الله ، لقد أدخلتِ السرور إلى قلبي يا أمي
الحبيبة ..

(نكريات ساري)

لا زال ساري في طريق العودة إلى منزله يتذكر ما
حدث له في الماضي ذرفت عيناه وسالت دموعات
على خده عندما تذكر كلمات والدته ، حتى قُطعت
هذه الذكريات بتحية أحد المارة : صباح الخير يا
ساري ..

مضى ساري في طريقه صامتها يمشي بخطواته
مسرعا حتى دخل منزله فوضع الخبز على الطاولة
ثم جلس على الكرسي ووضع يديه خلف رأسه فتذكر
تلك الرحلة التي أفقدته عائلته وجعلت منه إنسانا
غريبا في وطنه بعيدا عن الألفة ..

(ذكريات ساري)

وسأحكي لكم ما حصل :

صباح يوم الخميس :

- حسنا عزيزي ، ماذا تحب أن نتناوله على
الغداء ؟

- لا تتعبي نفسكِ ولا تصنعي شيئا ..

- لماذا ؟

- لأنني سأصحبكم معي إلى ربوة في آخر القرية
سنقوم بالشواء هناك ، فهذا آخر أيام الأسبوع وأود
أن أسترخي ولو لمرة واحدة مع أسرتي ..

- حقا .. هذا رائع سأجهّز كل شيء ..

- (ضم أصبعيه السبابة والوسطى ثم نقر جبينها
وقال) نعم سيكون غداءا جميلا معكِ يا أم ساري ..

ضحكت أم ساري وذهبت لتخبر الأطفال قبيل ذهابهم
إلى المدرسة ، لقد فرحوا كثيرا ، رغم بساطة العيش

لكنهم يجتمعون فتقرّ أعينهم ببعض ، كان ساري في الليل يسألهم بقصص جميلة ، وها هو والدهم يبيت سعادة في قلوبهم فتغمرهم ، فكثير يتمنى أن يعيش مع هذه العائلة ، فكم من غني لا يعرف شيئاً عن أولاده ، فلا يجالسهم ولا يسامرهم ، بل لا يدري شيئاً عنهم البتة ..

في الساعة الواحدة بعد الظهر :

ساري : أمي لا أظن أنني قادر على مرافقتكم ، أعذريني فلدي عمل أقوم به .

- حسنا يا بني ، اعتدنا على هذا ، فأنت لا تذهب إلى أي مكان ، متى ستغيّر من طباعك ؟

- أتظني أنني لا أحب مرافقتكم ، لا أعني هذا أمي إنما أحب أن أنتهي من أعمالي ، . ولأكون واضحاً أكثر فأنا بحاجة لقراءة كتاب اشتريته البارحة ، يتكلم عن أحداث الساعة ونهاية العالم ، وهذه فرصتي لأقضي بعض الوقت مع كتيبي ..

- كنت أمازحك يا بني ، فأنا أعلم أنك تتشوق
لقراءة هذا الكتاب ، ولقد رأيتك تدخل متلهّفا ليلة
أمس ، وكأنك استحوذت على كنز من الكنوز ..
حسنا ، سنذهب الآن وانتبه إلى نفسك ، وحذار أن
يدخل البيت أحد وأنت مشغول بالكتاب ...

- شكرا أمي سأجلس في البيت حتى تعودوا إن
شاء الله ..

ذهب الجميع وبقي ساري في البيت لوحده ، حضر
بعض الشاي ورتّب طاولته وبدأ يقرأ كتابه ، ويقبّ
صفحاته ، كانت الأحداث مشوقة ، فهي تتكلم عن
أشراط الساعة و بعض أحداث التاريخ ، كان ساري
مستمتعا بوقته كثيرا ، ولم يبرح عن مقعده حتى
أنهى كتابه ، لم يسترح إلا عندما قام يصليّ العصر
وأتبعه بالمغرب ، في هذه الأثناء كانت أسرته قد
قرّرت أن تذهب إلى إحدى المنتزهات لقد غيروا
طريقهم بعد أن كانوا متجهين إلى الربوة ، كان
الطريق بعيدا لكنهم وصلوا واستمتعوا بوقتهم ، غير

أنهم تمنّوا كثيرا أن يرافقهم ساري ، لكنه لازال
يتمنّع عن رفقتهم ، فهو دائما مشغول بكتبه أو بعمله

أظلمت الدنيا وقد نادى المؤذن لصلاة العشاء
وانتهى المصلّون من صلاتهم ، وسكن كل رجل إلى
أسرته وأزواجه ، ودبّ القلق في قلب ساري بعد
تأخّرهم عن الوصول ، لقد أخبره والده أنهم
سيعودون قبيل العشاء ، مضت ساعات الليل ولا
يزال ساري بمفرده ولم ينم دقيقة واحدة ، انهى كتابه
وأصابه التوتر والقلق ، كان يمشي في بيته الصغير
من الغرفة إلى المطبخ ثم إلى النافذة المطلة على
الطريق المظلم ، لعله يرى ضوء سيارة قادمة ،
ولكن دون جدوى ، جلس في سريره يتأمل السقف
حتى الفجر وقد أخذته الأفكار وجعلت عينه ثقيل
أبوابها حتى نام دون أن يشعر ، ولم يستفق حتى
أذان الظهر في اليوم التالي ، ولحظة استيقاظه شعر
بحزن شديد ، لم يجد والديه ولا إخوته ، لم يجد أحدا
في البيت ، خرج مسرعا فإذا بأناس يقفون عند

أبواب البيت ، أقاربه في جهة وجيرانه في جهة
أخرى ، خرج من البيت إليهم فإذا بهم يصرخون ،
ساري لم يمت ، ساري لم يمت ، اجتمع الناس حوله
، سألهم ما خطبكم ، فسكت الجميع ، وسمع أحدهم
يدمد ، كيف سيعيش هذا اليتيم بمفرده ، حينها أدرك
ساري أنه قد فقد عائلته ، وأصبح يتيماً ، لقد أصيب
الجميع بحادث في طريق العودة ، فاحترقت بهم
السيارة ولم يبقَ أحد منهم على قيد الحياة

لقد كانت بالفعل استراحة لهذا الرجل مع عائلته للمرة
واحدة ، كان هذا الاسترخاء [الاسترخاء الأخير] ،
أما حال ساري فقد كان نهارة فأصبح ليلاً ، انطفأت
أضواء السعادة ، واحتجبت بين غياهب الليل ،
وكيف سيكون حالك إذا كنت تقرأ أشرطة الساعة
وعلامات القيامة الكبرى فيقتشع بدنك ويخنس فيك
كل شيطان وتصغر الدنيا في عينيك ثم يأتيك خبر
كهذا الخبر ، حينها ستثبت لك هذه الأخبار أخبار

الأخرة ، ستكون كراهب قد قطع حبال المودة بينه وبين الدنيا .

نظر ساري إلى تلك الوجوه الصامته ، نظر يمينا فإذا بأقاربه يقفون وبعضهم قد اتكأ على بعض الشجر ونظر أشأم منه فإذا بجيرانه يتهامسون بينهم ، ثم أعطاهم ظهره واتجه إلى باب بيتهم ووضع خده على الحائط ونزلت منه دموع كادت تذيب الجدران ، لكنه لم يصرخ ، نعم لم يصرخ ولم يتكلم بكلمة واحدة ..

انقضت أيام العزاء ولا زالت القرية مظلمة بهذا الخبر وكان الجميع قد اتعظ به وأوشكت البسمة أن تنقطع من الوجوه وتزول كزوال ساعات اليوم ودقائقه ، أصرّ ساري أن يجلس في البيت وحده رغم محاولات الجميع من أقاربه أن يضموه إليهم ، لكنه رفض وقال :

لا تتعبوا أنفسكم فأنا لن أخرج من هذا البيت ،
سأتدبر أموري ، ولقد أخبروه أن عمره صغير
ويخافون عليه لكنه رفض ولم يترك لهم خيارا حتى
تركوه لوحده في هذا المنزل الموحش ، لقد فقد
عائلته فكيف سيمضي أيام عمره في هذا المنزل ؟

كان ساري يخرج في الصباح كعادته ، فيقفل أبواب
بيته ثم يذهب باحثا عن أي عمل خارج القرية
ونظرا لصغر عمره لم يجد إلا أعمالا تكفيه ليعيش
عفيفا لا يحتاج لأحد ، حتى استقر عمله في مزرعة
صديق والده يسقي أشجارها في كل يوم ويعتني
بمزرعتها ويهذب أعشابها ، وكان عملا رائعا
بالنسبة له حيث لا يجد فيه إنسانا ولا يختلط بأحد ،
لقد كان صاحب المزرعة رجل كبير في السن لم
ينجب أولادا وبقي لوحده هو وامراته العجوز ، فكان
ساري يساعدهم خلال النهار ثم يحصل على بعض
الخبز والثمار والخضار بالإضافة إلى مبلغ بسيط
فكان طعامه وشرابه من هذه المزرعة أما المال فقد

كان يشتري به كتباً كلما اجتمع لديه مبلغ يكفي لكتاب ، حتى تكوّنت لديه مكتبة صغيرة تذكّره بوالدته وبمحدثتها ، وبقي في هذا العمل لأكثر من ثمانية أعوام ، يخرج صباحاً ويعود إلى منزله في المساء ، أما أثناء الشتاء وعودة المدارس فكان يعمل بعض الأعمال عند هذا الرجل بعد عودته من المدرسة ، اعتاد الرجل أن يرى ساري في كل يوم حتى عدّه كولدٍ له وكان ينفق عليه أحياناً ويعتني به حتى كبر وقضى تلك السنوات ، لكن الرجل سرعان ما باع مزرعته عندما أراد أحد الاثرياء شراء هذه المزرعة وعاد ساري إلى منزله يعمل ليوم واحد في الأسبوع في أي مكان وما يجنيه من المال خلال يوم واحد يكفيه لينفق على نفسه باقي أيام الأسبوع وكان معظم وقته بين تلك الكتب التي اشتراها والتي حصل عليها أيضاً من صاحب المزرعة ، صحيح أنها كتب كمهارق الفرس لكنها كانت موسوعات ضخمة بطبعات قديمة نادرة ، ورثها الرجل عن أبيه ثم أصبحت بين يدي ساري كالكنز الذي يتمناه الكثير ،

كانت معظم تلك الكتب تتحدث عن الطبيعة والفلسفة وأقوال الحكماء بالإضافة إلى موسوعات عامة ، كانت صفحات تلك الكتب محشوة كأن كاتبها لا يجد ورقا يكتب فيه فصارت الورقة الواحدة من هذه الكتب تعدل خمس صفحات من الكتب في زماننا هذا ، لكن ساري التهم تلك الأوراق التهاما الجائع في الصحارى ، وكان الناس لا يرونه إلا يوما واحدا يخرج فيه يسلم عليهم ماشيا في طريقه باحثا عن عمل ، كانوا يقبلون بوجوههم مبتسمين له فإذا رحل عنهم تحدثوا وقالوا : لماذا لا يبحث عن عمل ويتزوج ، لو أنه رحل مع عائلته لكان أفضل له ، كان في نظرهم مجرد رجل فاشل قد ترك دراسته بعد الثانوية يقولون قد حظي أصحابه بدرجات عالية ودخلوا الجامعات ولم يدخلها هو ، يا له من فاشل وكيف سيكون ناجحا بدون تربية والديه ولم يسألوا أنفسهم هل لهذا الشاب الذي عاش يتيما مالٌ يكفيه أو رجل يغنيه عن العمل ليفرغ نفسه ويدرس في الجامعات كأصحابه ؟

لكن الناس يجتمعون في نتف ريش الديك أما عند اطعامه والاعتناء به يولون مدبرين ، من سينفق على شاب دون أن يجد تعويضا ؟

مضت حياة ساري على هذا النحو ولم تتغير ، يعمل يوما ويجلس باقي أيامه بين الكتب والأفكار ، وكان قد حظي بأسرة في القرية المجاورة لديها مجموعة أطفال يدرّسهم اللغة العربية والأدب مقابل مبلغ زهيد ، وصار له سيرة جيدة في القرى وكانت له دروس خصوصية خاصة مع قلة المعلمين في القرى ، فيقتات على هذه الدروس الخاصة .

أما أصحاب ساري فقد انقطعت أخبارهم بعد دخولهم الجامعات ولم يبق له منهم إلا (خاطر) كان يزوره بين الحين والآخر مع أن الكثير من الناس يحذرون الدخول إلى بيت ساري زعما بأنه **بيت مسكون من الجن** ، يحبون الاشاعات ويحبون أن يخلقوا قصصا ويستمتعون بالأكاذيب ، في تلك الليلة زعموا أن أفعى ضخمة مرّت من إحدى حقول القمح وخاف

الناس وذعروا وأصبح الكثير من الفلاحين يخافون
الدخول إلى حقولهم حتى تبين أنها مجرد كذبة وأن
أحد الأطفال كان يجر كيسا من القمح قد سرقه
وربطه بخيط وجره خلفه بين الحقول فترك الكيس
أثرا خلفه وكانت آثاره بشكل يشبه سير الأفعى فظن
الناس أنها أفعى ، الناس يحبّون أن يضحّموا
القصص فإذا وصلت قصة إليك عبر الناس فاعلم
أنها قد كبرت عن حجمها الطبيعي كثيرا .

ظل خاطر يزور ساري ولم يقطعه البتة ..

كانا أشد ارتباطا من الإخوة ...

ليلة مضيئة رغم ظلامها

في بيت خاطر

انقطعت الكهرباء في تلك الليلة أواخر أيام الشهر لم يكن فيها قمر مضيئ أو مصباح يبثّ الظلام ، ضيقٌ أطبق يديه على الصدور وأشعل بعضا من الأفكار التي لم يجد العقل وقتا لمعالجتها ، كان مشغولا جدا في حياته ، من عمل إلى عمل ومن فكرة إلى فكرة ، لم يفكر بنفسه على الإطلاق وكان كل همّه أن يجلس بصحبة حاسوبه القديم ، كانت متعته في البحث عن أحدث البرامج والكتب فماذا جرى في تلك الليلة ؟

كان خاطر من أكثر الناس حبا للحاسوب والانترنت لم يدخل مواقع المحادثات ولا المنتديات إنما كان يبحث عن الفوائد والبرامج في كل صفحات الانترنت ، وأحيانا يطالع في الكتب الالكترونية ويدون في أوراقه كل ما تقع عليه عينه ويعجبه ، وعندما انقطعت الكهرباء توقفت خلايا جسمه عن العمل ،

ووضع رأسه على تلك الوسادة ، والظلام من حوله كالضباب عند طلوع الفجر ، شعور بالوحدة والابتعاد والفراق لم يشعر به من قبل رغم وجود أخواته في الزاوية الأخرى من الغرفة ، كنّ صغارا يلعبن ببعض الحصى ويمضين الوقت باللعب حتى تعود الكهرباء ، وأما الصغير لقد كان يبكي بشدة من الخوف يريد أن يقضي حاجته لكن الظلام حال بينه وبين [بيت الأدب] ، أخذته والدته وهي تمسح دموعه وتقول (لا تخف يا بني أنا معك) كانت في الأربعين من عمرها لكن الشيب والتعب والهجوم صيّرها ابنة الستين أو السبعين ، كل هذه الأحداث تتكرر كثيرا لكنها في هذه المرة لفتت انتباه خاطر ، لقد كانت رسالة ربانية لخاطر حتى يستفيق من اعتزاله ويرى الواقع بعدما انشغلت عينه بشاشات الخداع والخيال .

كان يحدث نفسه :

أمضيت سنوات من عمري أبحث في كل مكان عن أي شيء يسليني أو يعلمني ، لكنني لم أبحث في أي وقت عن نفسي ، قطعت اتصالي بعائلتي كما قطع الكثير اتصالمهم بالعالم الخارجي وركنوا إلى هذه التكنولوجيا البائسة التي أورثتنا الحزن ، وكأني شيطان يعيش في كهوف الجبال ...

انظر إلى أمك يا خاطر ، لقد طوت مراحل الشباب وأنفقت باكورة عمرها لقد التفتت إلى الخمسين وهي تنظر إلى تجاعيد الستين ، وقد يبست عروق يديها وقدميها ، هل سألتها ماذا تريد ، وأخواتك الصغار بعد وفات والدك لم تجلس إليهن وتسمع منهن ، لقد شرّد عالم الانترنت أفكارنا وأزال عنا المحبة وكرم النفس ، وألهانا عن واقعنا المرير وكيف نصلحه ونحن نبحث خلف الشاشات عن ذواتنا فتخدعنا كما خُذعت الساحرة بمرآتها حين سألتها فأجابت : أنت أجمل امرأة في الدنيا فلم تفتن على قبحها حتى

ماتت ، لقد وضع خاطر يديه على عنقه كالمختنق
وكان وابلا من الهموم قد نضح السقف فوق رأسه ،
و لا زالت أفكار خاطر تحرّكه حتى أورتته صداعا
شديدا ، ولأن كل عضو في أجسادنا يسهر على بقية
الأعضاء رفعت يديه لا إراديا نحو رأسه لعلّ بعض
الضغوطات تزيل عنه صداعه ، وأنتم تعلمون ما
تصنعه الأفكار إذا تبعثرت في الرأس ولم تجد
مخرجا كتبعثر حبات الذرة فوق زيت داخل قدر كاد
يذوب من حرارة نارٍ تحته ، حتى قطع حديث النفس
عودة الكهرباء وكان الحياة عادت إلى أجساد ميتة ..

تأمل خاطر ضحكات أخواته الصغار ، عندما عادت
الكهرباء ثم نظر إلى والدته فابتسم في وجهها ، اعتاد
خاطر أن يحضروا له العشاء فيدخلونه إلى غرفته
المعزولة ، فمنذ أن صارت لديه غرفة وحاسوب لم
يتناول عشاءا مع والدته وأخواته ، في هذه اللحظة
طلب خاطر من أخواته أن يحضرن العشاء ليتناولوه
معهن ، نظر الجميع إليه باستغراب شديد ، حتى

قطع تلك النظرات والاستغراب صوت والدتهن :
أذهبن بناتي ألم تسمعن ما قال خاطر ..

بقيت أفكار خاطر تراوده خلال تلك الساعات وخاصة قبيل الفجر عانى الكثير من الأرق لم يعد يهتم كثيرا بالحاسوب لكنها مجرد فترة ستزول قريبا ، ولهذا كان ل خاطر أن يزور صديقه في الصباح الباكر ، ومضت تلك الليلة وانقضت ساعاتها وقد هبئ خاطر نفسه للخروج كالمعتاد ، سأل والدته إن كانت تريد منه شيئا ، وكانت تعلم أنها إن أرادت منه شيئا ستجده عند صديقه [ساري] فهو صديق الطفولة وصاحب الأفكار والحكيم الأول ل خاطر ورغم ما أشاعوه عن ساري أنه مجنون وبيته المسكون لكن خاطرا كان يحبه كثيرا ويزوره بين الحين والآخر ، فما من معضلة يقع فيها حتى يجد حلها عند ساري كان ساري منشغلا بالتعلم والكتابة والتصنيف ، كان يحب مساعدة الناس ويحب حل مشاكلهم لكنهم كانوا يسخرون منه أشد السخرية ..

طرق خاطر بيت صديقه ساري ، تأخر ساري في فتح الباب تعانقا ، ابتسم في وجهه وقال : على غير عادتك تتأخر في فتح الباب هل أنت بخير ؟

ساري : لا تقلق إنما كان تأخري لأنني كنت في الحمام أغسل رأسي بماء بارد ..

خاطر : ماء بارد ؟ في هذا الزمهرير ...

ساري : لقد تشتتت أفكاري ، حاولت أن أجمعها ببرد الماء .

كان خاطر يتحدث إلى ساري وينظر إلى غرفته المظلمة ، كانت الأضواء خافتة وعلى الجدران علق قصاصات من الورق كادت تغطي الجدران بالكامل ذهبت أفكار خاطر بعيدا وقد قال في نفسه : ما هذه القصاصات ؟ اعتاد ساري ان يدخل خاطر إلى الصالة دون الغرفة وأدخله اليوم في غرفته ولأول مرة ، تمشى خاطر في تلك الغرفة وصار يقرأ

ويقرأ .. قصاصات معلقة في كل مكان ، قرأ خاطر
واحدة من هذه القصاصات كتب فيها :

لا إنسان أفضل من غيره الطبيعة الطيبة خلقت
للجميع ولكن هناك من عرف منها الكثير ومنهم من
لم يعرف شيئا ..

ثم نظر خاطر إلى قصاصة آخر كتب فيها :

معاملة الناس تنبغي أن تكون ثابتة مغموسة بالبر
والاحسان وحتى ولو كانوا مساجينا أو عبيدا
فالرفق والحسن مطلوب حتى مع الحيوان ..

كان ساري يكثر من الحكمة والفلسفة ، ويكفي أن
نقرأ هذه العبارات لنجد عمق تجربته وارتفاع ذكائه
وفوح عبق أفكاره .. نظر خاطر إليه وقال :

إلى متى يا صاحبي وأنت تفكر ، ارح نفسك قليلا
وخذ فترة من الاسترخاء ساري : [لا] أي استرخاء
، أما علمت أن معظم الناس يفضلون مواجهة
المصائب على أن يفكروا في حلّها ، ثم ما الفرق بين

الإنسان والحيوان فجميعهم يأكل ويشرب وينام إلا
أننا نحن البشر نفضلهم بالتفكير فمن عطل تفكيره
فماذا عساه أن يكون ؟

خاطر : سيساوي الحيوان طبعاً ..

ساري : أخطأت ، بل سيكون أضل من الحيوان
وأذل ، والسبب أن الله أعطاه عقلاً فلم ينتفع به وربما
لو أعطاه للحيوان لانتفع به أكثر من البشر .. لكن
حكيمته عظيمة وهو الحكيم الخبير ..

خاطر : وماهي آخر أفكارك يا ساري ، أخبرني فلقد
غبت عنك أياماً ، لا بد أن هناك أفكاراً جديدة ..

ساري : توصلت في آخر أفكاري أن يبحث الإنسان
ويبذل قدر الامكان في سبيل تحقيق سعادة
للمجموعات الكبيرة فإن لم يستطع فليسعد
المجموعات الصغيرة فإن لم يستطع اسعادهم فعليه
أن يبحث عن سعادة أفراد أسرته على الأقل فإن لم
يستطع فعليه أن يسعد نفسه وإني لأعجب ممن لا

يسعد نفسه وليس له أي دور في أسعاد الآخرين ،
أتعلم يا خاطر إن السعادة الحقيقية أن تدخل سرورا
إلى قلب كئيب حزين ، لم يذق طعم سعادة من قبل ..
صحيح يا خاطر كنت سأقول لك عن شيء حدث لي
بالأمس ..

خاطر : قبل أن تحكي لي سأحكي لك ما حصل معي
ساري : تفضل .

خاطر : قبل أيام انقطعت الكهرباء [حكا له عن
أفكاره التي جاءتة ،]

ساري : أتعلم يا خاطر ، لقد حدث معي مثلما حدث
معك ، لكن الفرق أنني لا أكرث لانقطاع الكهرباء ،
إنما قلت لنفسي لأخذ قسطا من الراحة فقد تبعثرت
الأفكار ، وما إن جلست لأفكر حتى صرت أتساءل ،
أين أنا ولماذا وكيف .. وانهاالت الأسئلة حتى أغلقت
أجفاني بدون أن أشعر ..

خاطر : أظن أننا بحاجة لنفهم أنفسنا .

ساري : لو أننا جلسنا مع أنفسنا في كل يوم لحظات قليلة لوجدنا أنفسنا على قمم الجبال ترفعنا أفكارنا وتنزل بنا نحو النعيم والسعادة ولكننا انشغلنا بالناس عن أنفسنا وليتنا ندرك أننا من أسرة واحدة إن وجدنا عيبا في أحد أفرادها قلنا أنه قد جهل خطأه وسيعود ليتوب لكننا نبحت وراء عيوب الناس وأخطائهم حتى نسينا أنفسنا فلم نستفق على عيوبها ولم ندرك عظيم أمرها

خاطر : صحيح ، لقد تذكرتُ يا ساري ، لماذا لا تخرج إلى الناس ، وتجالسهم ، لماذا لا أجدك إلا في عملك أو البيت ، لماذا لا تجتمع إليهم مع أنني على يقين أنك محبوب من قبل الجميع ؟

ساري : محبوب (تحرك ساري نحو المطبخ وقبيل خروجه من الغرفة قال) لا أرغب برؤية أحد يا خاطر ، أشعر بخلايا جسدي و دمائي المتدفقة في

عروقي أنها كالحمم عندما أجالسهم أو أجلس إليهم ،
لا طموحات ولا أفكار ولا أهداف ، ماذا عساني أن
أفعل بين أناس ماتوا قبل أن يأتيتهم الموت ، ألا ترى
عقولهم كالأبواب التي صنعت بلا مفاتيح ، وقلوبهم
حلبة مصارعة للشهوات وعندما تتحدث إليهم
بالتطموحات والمستقبل يتحدثون بالدنيا والنساء ، لقد
سئمت من مجالستهم غير أنني صرت مجنونا بينهم ..
خاطر : مجنون !! كيف هذا ..

ساري : ألم تسمع عن ساري المجنون في القرية ؟
منذ أيام خرجت لأزور بيت عمي ، وليتني لم أزره ،
فبينما أنا في المجلس أحسست بأن الأجواء شبه
محترقة ، كأنني بين أشجار محروقة لا تحمل أوراقا
ولا ثمارا ، أحسست بغضب يريد أن يلتهمني ، وما
هي إلا لحظات حتى جاء طفل صادق فقال : أنت
المجنون ؟ قلت في نفسي أنه صادق لأن الأطفال لا
يكذبون في أقوالهم لأنهم يسمعونها من الكبار ، نعم
لقد كان صادقا ..

قلت له بعد أن سمعت ضحكات ساخرة : أنا مجنون !! .. حقا أنا مجنون ..

ثم خرجت يا خاطر ومع قرب بيتي إلا أنني شعرت أنه بعيد وكأني أسير في المشرق وبيتي في المغرب ، لقد طال الطريق كثيرا ولم أصله إلا بعد أن انقطعت أنفاسي .. منذ ذلك الوقت وأنا في البيت لم أخرج إلى أحد ولو سألتني عن حالي لقلت لك ، أني لم أحزن عليهم ولا أكثر لهم ولو صرت أكثر الناس جنونا في العالم لكن ما يقلقتني هو جلوسي في بيت مظلم لا زائر يزوره ولا نور يدخله ..

خاطر : امم ، لدي فكرة ، لماذا لا تدخل عالم الانترنت و ستتعرف إلى كل ما يحدث حولك ، ستتعلم وستستفيد .. ستتعرف إلى أناس من العالم البعيد وستنشر ثقافتك بينهم ، لا أشك بقدرتك على أن تكتسب الكثير من الأصدقاء خاصة أنك نبع من الأفكار والحكمة ، ومن أعطاه الله حكمة فقد حظي بفضل كبير عظيم ..

ساري : إن شاء الله ، سأدخله ..

خاطر : صحيح .. أردت أن أسألك يا ساري لماذا
قالوا عنك مجنون ؟

ساري : لا أدري يا خاطر ، فمئذ أن ماتت عائلتي
أخبرني عمي أن أعيش عنده في بيته وأن أبيع هذا
البيت ليأخذ ثمنه مصروفا لي فرفضت ذلك ، فأخذ
يطردني من كل مكان يراني فيه حتى أوافق على
طلبه .

خاطر : لماذا لا تفعل ما أخبرك عنه يا ساري ؟
لماذا لم تسكن في بيته وهو أفضل لك من الوحدة ؟

ساري : لا يا خاطر ، فكَر بذلك قليلا ستجد أنني على
صواب ، في البداية سيأخذ بيتي ويبيعه وبعد ذلك
سيشعر بثقل على ظهره لأن طبيعة البشر عندما
ترغب في أمر من أمور الدنيا ستبذل ما بوسعها
لأجل أن تأخذه وأعني ببذل الوسع بالكلمات اللطيفة
والأعمال الحسنة ، فإذا استحوذت على غايتها

وحققت مراد نيتها انقلبت الأفكار وربما صرت بعد
بيع بيتي مجرد ولد متشرد فكلمة مجنون لا تهتم إذا
كان لي بيت يؤويني أما أن أتشرد واشحد فهذا أشد
بأسا علي من الجنون الكاذب .. ومثلما قلت لك يا
خاطر إياك أن توافق الناس أفكارهم حتى تعود إلى
بيتك وتفكر بكل كلمة ينطقون بها ، وهذه قاعدة
جلية احفظها جيدا عني : ليس هناك فعل إلا بسبب
وليست هناك كلمة تخرج إلا من فكرة وهؤلاء الناس
عندما يطلبون أو ينطقون بكلمة فهي من وحي
أفكارهم وقلوبهم حتى لو كانت مزاحا فاحذر
سكاكين الكلمات فهي غادرة ولن تسلم من موت
بسهامهم المسمومة إن أعطيت ظهرك لهم واقتنعت
بأفكارهم قبل أن تعالجها في رأسك ..

خاطر : ما أجمل هذه الكلمات ، وكأن سقراطا في
بيتك من أين تأتي بهذه الكلمات لوددت أن أتحدث
مثلك يا ساري ..

ساري : ليس بالضرورة أن تتحدث بهذه الكلمات لكن الأكثر أهمية أن تدرك ماهية ما تقوله وتتلفظ به يا خاطر ، فرب لفظة أورثت حربا ورب نظرة أورثت عشقا وحبا .. هكذا يقولون ..

فصل

دخل ساري إلى عالم الانترنت بعدما أخبره خاطر بالفكرة لعله يخفف من ألم وحدته قليلا ، ومضت أيام طويلة ، وزاد انطواء ساري ، فقد دخل إلى أحد المنتديات ليشاركهم أفكاره ، ويحل بعض المشاكل التي يراها في بعض أقسام المنتدى ، أحبه أعضاء المنتدى ، كانوا سعداء بتواجده بينهم ، وبأفكاره الرائعة ، لكنه ابتعد عن خاطر ، وانشغل أكثر من السابق ، لكن لم تنقطع المودة ، وقد كان تواصلهم عبر البريد أكثر من تواصلهم بالأجساد والوجوه .

وما هي إلا أيام حتى اعتاد ساري على الانترنت
وشارك في كثير من المنتديات ونشر أفكاره عبر تلك
المجموعات .

كان يضع بريده تحت كل موضوع يكتبه ، ويطلب
من كل قارئ انتقاده ورأيه كانت تصله الكثير من
الرسائل فيجيب عليها ويشكر أصحابها ..

وذات يوم وصلتته رسالة عبر البريد من فتاة قالت له
، أريد مساعدة منك وأخبرته عن طلبها فساعدتها ،
وانتهى الموضوع ...

تكررت رسائل تلك الفتاة الغريبة ، وشعر ساري
بالريبة ، فقد كانت تسأله عن أشياء مبهمة ، عن
أشياء مريبة ، وحين سألها عن اسمها كان اسمها :

[رنوة]

كانت تتحدث إليه حديث المجنون إذا هاج ، وحديث
نائم لم يشبع من النوم وقد أخبرته في بعض رسائلها
أنها قاتلة ، وفي بعضها أخبرته أنها ساحرة ،

وأخبرته أنها مجرد روح منتقمة ، كانت دائما تقول
له أطفئ أضواء غرفتك لا أحب الضوء ، أعشق
الظلام ، وفي رسالة أخرى أخبرته أنها تعبت معه
كانت تمازحه ، لكن مزاحها بدا له وكأنها جادة ، لقد
كان ساري من محبي الخيال لكن لا يجب أن يتخيل
ما لا يُعقل ..

ليس غريبا أن تعبت فتاة بعقل رجل عاقل لبيب ،
لكن الغريب أن تعبت بأشياء مريبة ، كالقتل
والأرواح والكذب والخداع ..

استمرت هذه المراسلات وعرف ساري بعض
الأشياء عنها ، لقد كانت تنام قليلا وتعيش بمفردها
عانت بها الهموم والغموم ، لكنه لم يصدّق هذا لأنها
مريبة في حديثها وفي وصفها وطلباتها ، وكأنها
ولادة لغياب الليل لا تحادثه إلا ليلا ، ولا ترد على
رسائله إلا في ظلام الليل .

أما خاطر فلم يعد يلتقي بساري لقد انشغل كل واحد بما لديه من أشياء ، فخطر له أعماله وغالبا يبحث عن الأشياء الممتعة والمفيدة ، أما ساري فانشغل بمراسلة هذه الشيطانة كما يسميها ، ولقد أصابه الفضول لمعرفة سر هذه الفتاة ومن أين أنت ولماذا راسلته هو بالذات ، كان جلّ حديثها عن الظلام وعن الظلم الذي تراه بين الناس وتتحدث بأحاديث مبهمّة مخيفة ، ففي أحد الأيام قالت له أغلق نافذة غرفتك فأنا أشعر بالبرد ، أصاب ساري الرعب كيف عرفت أن نافذته كانت مفتوحة وأن هناك برّدا في الخارج ، لقد فتحها ليغيّر من أجواء الغرفة ، وما إن فتح نافذته حتى أرسلت له أن أغلقها ، ومرة أخرى قالت له إياك أن تغشني بحديثك ، فأنا أكره الكذب وأمقت الكذّابين ..

وفي إحدى الليالي سألتها لماذا تحبين الظلام ، هل أنتِ شيطانة ؟

أخبرته أنها ليست شيطانة إنما هي [مخلوقة] عابرة
عابثة اختارته لتحدثه ولتتسلى بحديثه فقد رأت أن
كلماته رائعة وحديثه شيق ، قالت له في تلك الليلة :
هل أحببت في يوم من الأيام ، هل تذوقت طعم
المحبة ؟

ساري : لم أتذوق أي طعم ، ولا أريد أن أتذوق ،
ليس لدي مشاعر أو أحاسيس لأحب ولو أحببت فمن
الفتاة الي ستحب رجلا لا يخرج إلى أحد ولا يختلط
بالناس ، بل وصفوه بالجنون ..

رنوة : ولكنك ذكي تحل المشاكل فلماذا لا يستفيدون
من هذا ...

ساري : وكيف عرفتِ هذا .. هل أنتِ [خاطر] هل
تعبت معي يا خاطر ..

وماهي إلا لحظات حتى سمع من [يطرق الباب]
ذهب ساري مسرعا ليجد صديقه العزيز خاطر قد
وقف عند الباب مصابا بقدمه اليسرى لقد دهش

ساري كثيرا لأنه كان يظن أن رنوة هي اسم مستعار
لخاطر لكنه كان مخطئا في ذلك ، أخذه إلى الداخل
وعندما سأله عن مصابه قال خاطر : لا تقلق مجرد
التواء بسيط ..

..أوصلني إلى البيت لو سمحت ...

حينها ذهبنا إلى بيت خاطر واطمأن عليه ولم يرق من
عنده حتى منتصف الليل ثم عاد ليجد رسالة من
رنوة أفرغته كثيرا ...

لقد قالت [كيف أصبح خاطر] هل قدمه بخير ؟

م م م .. من أنت ؟ هل أنت شيطانة ؟ أخبريني ...

ثم أغلق حاسوبه ولم ينم إلا قليلا .. يفكر ..

لم يتجرأ أن يفتح حاسوبه لأيام .. لقد كان خائفا أن
يجد رسالة من [الشيطانة] في كل مرة يضع يديه
على مفتاح التشغيل ثم يعود ليرفعها ويبتعد عن
حاسوبه ومع خوفه الشديد وحيرته الكبيرة لازال

يريد محادثتها فهناك فضول يقتل القلوب ، تردد كثيرا في تشغيل حاسوبه ، ثم ما لبث أن شجّع نفسه ودخل إلى الشبكة ومن ثم إلى بريده ، لم يجد أي رسالة حاول مراسلة الفتاة لكن في كل مرة يرسل رسالته تعود إليه رسالة أن البريد الذي كتبه غير صحيح ، وأنه غير موجود أصلا ، حاول تسجيل بريد جديد بنفس بريد رنوة فتم قبول ذلك البريد الجديد وكأنه لم يُستخدم من قبل ...

ازداد خوفه وتسارعت نبضات قلبه وأغلق حاسوبه وهو يفكر ، هل عشت أياما أتوهم ؟ هل كنت نائما ورأيت هذا في حلمي ؟ لابد أتذكر ..

نعم صحيح سأعود لأرى هل هناك رسائل في البريد الوارد .؟ سأؤكد فأنا لم أحذف أي رسالة ..

قام بفتح بريده وفوجئ أن رسائله معها ليست موجودة حاول جاهدا أن يستعيد الرسائل لكنه لم يستطع استرجاع شيء منها للأسف ..

ضحك ساري وهو لا يعلم هل كان يتوهم أم أن هذه الحوادث التي مرّت به حقيقية ، ثم زاد شكّه وأصبحت الأفكار تغرس سهامها في قلبه فتخره كوخز الإبر حتى صار يوسوس هل أنا أتوهم ، هل عائلتي بخير ، أم أنهم ماتوا حقا ، ماذا حدث ؟ أنا متأكّد أنني حادثت فتاة منذ أيام .. لكن سرعان ما طمأن قلبه وأزال عن نفسه الشكوك وقال : حتى لو كنت مجنونا لا يهم فقد فقدت أجمل شيء في حياتي ، فقدت أسرتي .. فقدت أمي الحنون ، فقدت أختي لين التي كانت تضحكني دائما ...

ولا زال يقول لنفسه هذه الكلمات حتى ارتاح قلبه ... هذه أول ليلة ينام فيها مرتاح البال مع أنه لازال يفكر بما حدث لكنه أقنع نفسه أنها مجرد أوهام ...

في الليلة التالية وجد رسالة في بريده من رنوة ، كان بريدا جديدا آخر ، لكنها كانت أكثر صراحة من ذي قبل ، لقد كتبت له تخبره أنها فتاة من الجن ، كتبت

له (إذا لم تتكلم معي سأقتلك ، سأنتقم منك ،إياك أن
تقتل حاسوبك)

ساري : لماذا كل هذا يا فتاة ، ما السرّ في كلماتك
هذه ..

رنوة : أحببتك يا ساري ، لن أتخلى عنك إذا كان
البشر قد أسسوا بيوت الحب على حجر الخديعة فأنا
جنية لا أخادع في حبّي وإذا أحببت فإنني لن أرضى
بغير من أحب ...

دخل ساري في هذه الأجواء ، وظلام غرفته أضفت
إلى المحادثة أجواء الحقيقة ، قرأ الكثير من الكتب
عن الجن لكنه الآن يكلم جنية ، لم يعجبه كلامها ،
لقد خاف أن تدمر حياته فوق ما هي عليه الآن ..

ساري : ماذا تقولين أتجدين هذا ممتعا أن تهدمي
حياتي وتسببين لي المتاعب ، أرجوكِ دعيني وشأني
يكفيني فقدي لأهلي فقدي لذاتي يكفيني الجنون الذي
وصفت به ، يكفيني كلمات غاضبة سمعتها من عمّي

، يكفيني ظلم أقاربي والناس ، لا أعرف أين أنا
ولماذا هنا .. دعيني ..

رنوة : لن أدعك ، كذلك لن أمنعك من أن تتزوج
وأن تحب ، وكل ما أريده منك أن تحادثني أن لا
تقطع أخبارك عني ، سأساعدك إذا أحببت سأنقل لك
أخبار من تحب وأراقب لك صدقها من كذبها سأحطّم
حياة كل من يخونك ويغدر بك ، سأنقل لك أخبار كل
من يتكلم عنك ..

ساري : أتعلمين هذه الخدمات التي تقدمينها رائع
جدا لكن ليست لي ، أرجوك ، لا أريد أن أعرف
شيئا عن أحد ، لا أريد مواجهها وآلاما .. أما علمتِ
أنا عندما نتجاهل أقوال الناس وأفعالهم ونهتهم
بأنفسنا نعيش في راحة وهدوء .. يكفيني ما أجده
من ألم الغربة ومواجه الفقد ، أخبار الناس لا تهمني
وأعمالهم لا تعنيني ، عشت وحيدا وأريد أن أموت
وحيدا ، إن شئت فقلني : **أني فيلسوف التشاؤم ،**

أرى كل شيء مشؤوماً بانسا كئيباً ، لا أجد سعادتي معهم ، هكذا أنا ..

رنوة : أنت تقول هذه الكلمات فقط لأبتعد عنك لكني اعلم أنك تتمنى أن يكون لك إخوان وأصدقاء وأناس تمضي معظم وقتك معهم ..

ساري : لقد قلتي هذا ، نعم كنت أتمنى ، أما الآن فأنا لا أتمنى شيئاً ، في كل أسبوع أختار يوماً أعمل فيه لتأمين قوت يومي ويكفيني هذا ... سأذهب لأنام ، تصبحين على خير ..

انتهت المحادثة عند هذا القدر ورغم ما يحدث لساري من أمور غريبة ، لم يتحدث إلى صديقه خاطر عن أي شيء لقد كتم ما حدث معه كتمان من يخاف الموت لو تكلم ، إضافة إلى ذلك تحذير رنوة له إن باح بكلمة واحدة ستقتله .

و في الليلة التالية خرج ساري على غير عادته ليتمشى كان الفصل شتاءاً وقد طال الليل حيث لا

تجد إلا القليل من الناس في الخارج فالهدوء العجيب
والرياح الباردة وأصوات الأقدام ونباح الكلاب في
تلك الناحية ، فساري يعيش في قرية والقرى مليئة
بالهوام والدواب ..

رجع إلى بيته في منتصف الليل ، ومرّ بمدرسة
بالقرب من المقبرة وما هي إلا لحظات حتى رأى
رجالا يدخلون المقبرة مسرعين ويدمدمون بلغة غير
مفهومة ويسحبون وراءهم دابة لا تزال حية لم تمت
، أصابه الرعب وهرع إلى بيته خائفا لم يستطع
النوم في تلك الليلة أفكار تذهب وتجيئ انتفض أكثر
من مرة من فراشه عندما لمست قدمه طرف السرير
ظنا أن شيئا ما أمسكها حاول أن يبعد تلك القصة
عن رأسه ولم يستطع استعاذ بالله من الشيطان ،
وحاول أن يبعد هذه الفكرة بقراءة بعض القصصات
التي تثبتّها على جدران غرفته لكن دون جدوى ثم
قرر أن يدخل شبكة الانترنت لعله ينسى قصة
الرجال والمقبرة وفي تلك الأثناء تذكر بريده وتذكر

رنوة وأحب أن يعرف أكثر عن تلك الفتاة كانت
مستيقظة طوال الليل ساري يعلم بهذا الأمر تماما
حيث أنها لا تدخل إلا ليلا فتح بريده وتحدث إليها
قائلا :

- هل تنامين في النهار ؟

- أنا لا أنام إلا القليل ، لسنا مثلكم أيها البشر ، نحن
ننام دقائق معدودة فقط .

- حسنا ، لماذا أحببتِ التعرّف إلي ، أنا بالتحديد .

- أعجبتني كلماتك في إحدى المواقع وأردت أن
أكتشف سر شخصيتك ، في الحقيقة ، لقد أحببتك .

لقد راقبتك وتابعت نقاشاتك ، أحسست أنك شاب
غامض لديك الكثير ، لكن الاضواء لم تسلط عليك
حتى الآن ..

سأساعدك ، حتى أراك في أعلى الجبل ، إن كان
لديك طموح ستتحقق إن شاء الله ..

- أشكرك كثيرا ، لكنني لم أصدق أنك جنية ، أثبتني لي ذلك ..

- حسنا ، ليس بالضرورة أن تصدق ، لكنني انظر إلى رسائلي التي أرسلتها لك ، لقد حذفتها كلها .. انظر لتتأكد ..

- نعم ، هذا صحيح ، لقد حُذفت جميعها ..

- سأخبرك عن هؤلاء الرجال الذين رأيتهم يدخلون إلى المقبرة ، إنهم رجال من الجن اصطادوا عشاءهم فذهبوا ليأكلوه في المقبرة ، فلا تخف لن يؤذوك .. وسأخبرك بشيء آخر لتعلم ماهية الناس وهؤلاء البشر من حولك ، إن وساوس الشياطين لا تنتهي أبدا وعندما تهجم الشياطين إلى قرية من القرى لن تؤذيهم بأكثر من نشر الحقد بينهم والوساوس خاصة إذا ابتعدوا عن الله ، فتنشر بينهم الأحقاد والخلافات وتستولي على قلوبهم فلا ينطقون بصدق ، انظر إليهم قد أبعذك عنهم وقد تمنى الكثير منهم موتك ،

وكأنك مصدر شؤم لهذه القرية ، انظر إلى عمّك
كيف حقد عليك لأنك لم تعطه شيئاً ، وانظر إلى
أصحابك كأنهم لم يعرفوك من قبل ، إنهم يسهرون
ويتمتّعون ..

- كفاك يا رنوة ، تتحدثين عن الشياطين ..

- أتخاف منهم ؟ كان من الأولى بك أن تخاف من
شياطين الإنس الذين من حولك ، ألم تتعلّم هذا و كل
من حولك مجردّ دمي بيد الحقد والطمع ..

فصل

اعترافات

بعد اعتراف رنوة بحبها لساري أخذت تسأله عن
نفسه وعن حياته التي لم يتحدث إلى أحد من قبل
عنها ، كيف مات أقاربه وكيف عاش حياته في
الوحدة ، وبدأ ساري بالحديث :

كنت طفلا جبانا لا أثق بنفسي ولا أحب أن أختلط بأحد ، نعم لقد كنت جبانا لدرجة أنني أتحاشى كل من حولي لأجل أن لا أدخل في مشكلة أعلم أنني سوف أكون الخاسر فيها ، لقد ضاعت ثقتي بنفسي ولم أجد من يساعدني على استرجاعها ، فأقاربي لا يشجعوني وأما في المدرسة فهذا يسخر مني وذلك لا يعير لي أدنى اهتمام لقد كرهت كل شيء ، وما زلت أبتعد قليلا قليلا عن الناس حتى وجدت نفسي تحت تلك الشجرة في مدرستي ، لا أجلس إلى أحد ولا أكلّم أحدا ،تظاهرت بالجنون والحمق ، نعم يا رنوة لقد تحامقت كثيرا وصار أصدقائي يتكلمون بكل حرية أمامي ظنًا منهم أنني لا أفهم شيئا كالأحمق ..

ومما زاد جنوني في نظرهم وحمقي أنني كنت أقرأ في كتبي أثناء الفرص ككتاب التاريخ أو الأدب وحين يسألوني أخبرهم : بأني أقرأ هذا كمتعة ، ليس لذلك غاية من النجاح أو الفشل ولكني أحب القراءة

ونظرا لأنني لم أجد المفيد في مكتبة المدرسة
حصرت اهتمامي بكتبي المدرسية ، حينها جعلوا
يضحكون مني ويسخرون ، وأظن أنني سمعت أحدهم
يقول : لنرى أين سيصل الجنون بك ، لقد جعلوا
الفرص لنرتاح فيها يا شاطر .. كانت كلمات ساخرة
وكنت أحيانا أشعر بالجوع في المدرسة لكنني لا أملك
شيئا لأشتريه فاتفق في يوم أن أحد الطلاب جاءني
وقال لي : أنا لم أكتب واجباتي ولم أعرف حلها فهل
يمكنك مساعدتي .

قلت له : حسنا سأساعدك بحلها لكن لن أكتبها لك .

قال لي : بل ستكتبها مقابل أن أشتري لك بعض
الطعام ..

وافقت على هذا لأنني في الحقيقة اشتفيت ولو لمرة
واحدة أن أشتري شيئا ولكنني لا أقبل أن آخذ شيئا
بدون عمل أقوم به ، هكذا اعتادت نفسي أن لا تقبل
شيئا بدون عمل ، كنت أعلم أنني إن كتبت له واجباته

أخطأت في هذا لكني أردت أن أشتري ولو لمرة
واحدة كباقي الطلاب ..

واعتاد هذا الطالب أن يعطيني واجباته في كل يوم
لأحلّها له بالمقابل الذي أعدت عليه ، فكانت بداية
جيدة للتغلب على الجوع والفقر ولأمنع صراخ
معدتي الذي كاد أن يجعلني كالأصم ..

وإلى الآن عندما أتذكر هذا أحتقر نفسي لأنني فعلتها
دون تفكير فذل الجوع والفقر أهون من فعلي هذا ،
ولكل إنسان منا أفعال لا يدرك قبورها حتى تمضي ،
ولو أننا أعطينا لأنفسنا بضع دقائق في التفكير لما
عرّضنا أنفسنا لهذه المواقف المخزية ..

ومضت تلك الأيام وسنة تجرّ معها أختها لتمضي
الأعوام كما يمضي القطار مسرعا لا يستطيع
الرجوع والعودة إلى الوراء ، عملت خلالها في كل
شيء كي لا أمد يدي لأحد وخاصة بعد وفاة عائلتي
ازداد الأمر سوءا .

حتى أتى ذلك اليوم الذي كان بداية الحب عندي ..

رنوة : وهل ستقص علي قصة ذلك اليوم .. أنتظر .

ساري : ذكروا لي أن فتاة سألت عني واعترفت بحبها لي ، قالت تلك الفتاة أن أحد المعلمين ذكرني بخير أمامهم .. لقد درست عنده منذ سنوات طويلة كنت مجتهدا وأحبّني كثيرا ، فلما انتقل إلى المدرسة المجاورة تحدّث عني ، وسألت عن تلك الفتاة مع أي استحييت كثيرا من سؤالي ، لم يسبق لي أن تحدّثت لفتاة أو شعرت بنشوة الاهتمام ربما هو الحب لكن **عفة المحب الصادق عن الأنداس تغلبه وتحميه مما يستقبحه الناس ويعدّونه من القبائح المزرية ، ولا ضير أن يكون الحب ممزوجا بالصبر وابقاء الودّ فهذا يبقيه وذلك يحفظه ويحميه ، ومع أي شعرت بهذه الأحاسيس لكني سألت نفسي لماذا أحببت رجلا مثلي صوته مبحوح بين الناس ووصفه مشؤوم ووسوسته ظاهرة لهم ، فعلمت أنها لم تحب لأجل كلمات فقط بل لتوافق أرواح فروحي وروحها قد**

تشابهتا فاتفقتا وعندما تتفق الأرواح تحصل المودة
ويشع نورها فيورث للقلب حبًا واطمئنان وقد ذكروا
لي أن هذه الفتاة قد عانت الكثير من أهلها فقد أرادوا
أن يزوّجوها ممن لا تحب ولقد كتبت اسمي خوفا
علي رغم أن إحدى قريباتها فضحتها أمام أهلها
وضربوها كثيرا لكنها لم تبج بسرّها خوفا علي،
فسعت كثيرا لإيصال هذا لي لكن عزلتي منعت أي
أحد أن يخبرني بهذا ، حينها تأكد لي أن حبّها خالص
وأنها صدقت لكن لم يتحقق ما توقّعتة ..

لقد تغيّرت كثير من الأمور لدي ، لم أستطع أن
أستفسر عنها الكثير لكني علمت أن هناك من يحبّني
، يفكّر بي ويعشقني ..

ولن يدرك أحد معنى هذا لأنني عشت وحيدا بينما
عاشوا مع أهلهم ، أمّهاتهم وآباؤهم وإخوانهم
وأخواتهم ، عاشوا معا حزنوا وفرحوا معا ، استقبلوا
الافراح والأحزان بقلوبهم المجتمعة ، لن أكون مثلهم
فأنا وحيد والوحيد الغريب إذا سمع أن أحدا ما يحبّه

تعلق كالغريق بقشة في وسط المحيط ، فهو يبحث عن أي شيء يمنعه من الغرق ولو كان خيطا رفيعا ، أو عود كبريت طفا على سطح البحر ، انشغلت كثيرا بالتفكير بها مع أن نظرتي إلى النساء كانت مشؤومة ، لا أعني الشؤم بمعناه ولكني كنت أرى حب النساء مضيعة للوقت بعد أن قرأت الكثير من القصص التي انتهت بالخيانة والغدر أو بزواج المحبوبة وانعدام النصيب ، فظلت هذه الأفكار تراودني وربما تأثرت ببعض الفلاسفة الذين كانوا يتحدثون عن المرأة كأنها رجل عقيم أو ممسوخ ، أضيفي إلى ذلك ما عانيته من أهالي القرية وخاصة النساء فلولا وسوسة النساء لما صار الرجال هكذا ، لكنني في النهاية أحببت هذه الفتاة ، كانت مختلفة في نظري ، صحيح أنني لم أرها ولا أعرف أين تسكن ، لكننا بتنا كالأعداء لا يتخالطون ولا يعرفون شيئا عن بعضهم ، غير أننا لسنا أعداء كما أنها لا تعلم أنني أهتم بأمرها كما تهتم هي بأمرى ، في تلك الليالي لم أستطع النوم ، أشعر بحرارة تغزوني وتأكل من

كبدي ، أضع يدي على قلبي فأشعر بنبضاته كأن
حربا طاحنة وقعت فيه وإذا ما حركتها نحو كبدي
وجدتها كأنها حجر خرج من بركان ، لا أدري لماذا
حصل هذا كله لكنها العاطفة إنها بخار حارق لا
نستطيع لمسه لكن له تأثير عظيم بما حوله ، وليس
لي إلا شهوة الأذن أن تسمع سيرته وتطرب بقصصه
وذكر اسمه ، لا أدري ما أقول وكيف صبرت تلك
الليالي بجرعات من النوم القليلة ...

كان أمر جنوني منتشر بين أقاربي وجيراني أما
في المدرسة فقد كانوا يقولونها سخرية لا أكثر
خاصة عندما يرون مني أشياء مضحكة في نظرهم
كقراءتي للكتب أثناء الفرص فنحن في زمان كثرت
فيه الكتب والمؤلفات وكثر المؤلفين وقل القراء ، وما
هي إلا أيام حتى قدر الله أن جلست مع والدها في
مجلس واحد وأنا لا أدري بأنه والدها كان شيخا
كبيراً وكان الرجال الكبار في القرى يحبون الحديث
عن الأنساب كثيراً ويتكلمون كأنهم كتب التاريخ

تنطق بقصصه ، كنا كصديقين رغم فارق العمر
بيني وبينه فلقد أحببني وأحبيته تحدّثنا عن الأنساب ،
أخبرني بأشياء كثيرة عن قرينتنا وعن مشاكل قديمة
وأمر غريبة وتحدّثنا لساعات دون أن أعلم أنه
والدها ، بل دعاني إلى منزله ودخلت ذلك البيت وقد
كانت تلك الزيارة الأولى والأخيرة ، شربت من قهوة
صنعتها هي بيديها ، أتعلمين يا رنوة لازلت أتذكر
طعم تلك القهوة ولازلت أسهر الليل وكأني أشرب
هذه القهوة في كل يوم ، والعشق يا رنوة كما قالت
العرب : **العقل عند الهوى أسيرٌ والشوق عليهما**
أميرٌ ولقد أصابني الصداع ما بين فكرة و خيال
وذكر ، فتارة أجد نفسي في سجن وتارة أخرى أشعر
بنشاط في منتصف الليل وأنتظر طلوع الشمس من
الرغبة في العمل ، لا أدري لماذا تبعثرت أفكار
ونظام عقلي ، عرفت أنني أسير لمن أهوى وصار
اشتياقي لمن أحبه حاكما يحكمني فلا أستطيع
عصيانه ، كيف لي أن أحب شخصا لم أراه قط ،
كيف لي أن أحب من سمعت أنه أحبني لكنها

الأرواح. كيف بي لو فقدته قبل أن أملكه وقد رغبت ودعوت أن لا يصيب أحد ما أصابني من شدة الوجد عليها وضيق الصدر لبعدها وأن تدمع عيني بلا إذن من قلبي ..

رنوة : وماذا حصل بعد ذلك ؟.

ساري : لا شيء ، لقد أهملتها كثيرا يا رنوة ، نعم أهملتُ ولم أجتهد في طلبها ، انشغلت وقتها بمشاكل أقاربي معي في كل يوم تنتشر قصة جديدة تعينني فيها من القبح ما فيها لقد ظلمت بينهم فكيف لو عشت بعيدا غريبا ، أتظنين أن يرحمني الناس بعد أن أحرقتوني بلؤمهم وخسة أطباعهم بقيت على حالي بين بكاء بلا صوت وبين أرق بلا نوم أو موت حتى جاء ذلك اليوم الذي سمعت بأنها تزوجت ، لقد تزوجت رغما عنها هكذا سمعت ، لقد كانت تأمل كثيرا أن أكون زوجها في يوم من الأيام ، هذا ما حصل ، أشعر بحريق كبير لا ينطفئ في صدري وكأنني فقدت شيئا عظيما لا أستطيع تعويضه ، لكنها

أصبحت كظباء مكة صيدها حرام فهي الآن متزوجة
وليس لي أن أذكرها حتى ..

حاولت أن أنساها ، لكن لم أستطع في كل ليلة أراها
أمام عيني وأسمع صوتها يناديني ، وقد وصلني خبر
أنها أنها مريضة بشرود ذهن وكأنها مجنونة ، يالله
ما بالنا نتحدث عن الجنون وكأنه أمر سيء لا أظن
أنه سيء إلى هذه الدرجة إن عرفنا سبب الجنون أو
عائنا بعضا منه على الأقل

رنوة : تابع أخبرني يا ساري .. ماذا حصل بعد هذا
ساري : آ آه يا رنوة لا أعلم أخبارا أخرى عنها في
تلك اللحظة ، لكنني اعتزلت في بيتي و لم أجالس
أحدا إلا وقت ضرورة .

منذ ذلك اليوم وأنا لا أفكر بالحب ولا أتحدث عنه
البتة ، لا أريد أن أظلم قلبا معي ، لقد مضى على
ذلك ثلاث سنوات ، انشغلت خلالها بدراسة الفلسفة
والحكمة ، لا أخرج إلا لعمل أو حاجة ثم أعود .

رنوة : أليس لديك أصدقاء يزورونك في البيت ؟

ساري :أتريدين الصراحة .؟ كان لدي الكثير لكن حاولت أن أبتعد عنهم شيئا فشيئا لم يبقَ إلا خاطر ، أنا لا أستطيع مرافقة من كان جلّ حديثهم الدنيا وشهواتها ، لهذا أستاذ كثيرا وهناك سبب آخر جعلني أبتعد كثيرا عن شواطئهم .

رنوة : أتريد أن تحكي لي هذا السبب وقصّته ؟

ساري : سأحكيه لكِ لكن دون أن تسأليني أو تقاطعيني ...

رنوة : تفضل ، لن أقاطعك ..

ساري : كنا ندرس جميعا صحيح أنني كنتُ أواجه كثيرا من السخرية لكننا كنا نتنافس من سيكون منا الأول في المدرسة ، وكنت متقدّما عليهم في تلك المرحلة غير أنني أصبت بالإحباط نتيجة الفقر ، كنت أفكّر وأقول : لنفرض جدلا أنك نلت الدرجات الأولى ثم ذهبت لتسجّل في إحدى الجامعات سواءا كانت

القريبة أم البعيدة ، فمن أين لك مصروف الجامعات
ومصروفك الشخصي وماذا ستصنع حيال دفاترك
وأقلامك وكتبك ومستلزماتك ، أنت تعلم أن أعمامك
وأخوالك لا يقربون منك ولا يريدون لك خيرا .. ولو
أرادوا لن يساعدوك حتى ،كنت أقلق على كل شيء
مع أني كنت أتحدث دائما لأمي رحمها الله عن القلق
وأنه لا داعي للقلق لكنني أصبت بهذا المرض بعد
وفاتهم ،وهنا بقيت هذه الافكار تأخذني بعيدا إلى
شواطئ اليأس والبرود حتى يئست من كل شيء
وكنتُ أدرس لكن بلا هدف لأنني لم أفكر بتاتا في
دخول الجامعة ..

وعندما جاءت نتائج الاختبارات كنت أتمشى في
السوق فذهبت إلى أحد المطاعم وقبل دخولي رأيت
أحد أعز أصدقائي قد دعا جميع أصحابنا ولم يتكلف
في دعوتي ، مع أني كنت قريبا منه وعزيزا عليه
وبعد أيام تأكدت أنهم جميعا عندما ذكر اسمي في

الدعوة رفضوا أن أكون بينهم فاستجاب صديقي لهذا ولم يدعني في ذلك اليوم ..

ومنذ ذلك الوقت وأنا أبتعد عنهم ابتعاد الرجل عن الطاعون وأهرب منهم هروب السجين من سيف السجان ، لكن ليس خوفا منهم أو أحسب لهم حسابا بل لأنني لم أعد أطيق رؤية وجوههم .

رنوة : كيف كنت تقضي وقتك ؟

ساري : بالكتابة والقراءة وأكثر الأحيان كنت أفكر ولا أملُ من التفكير لقد كانت أفكار كثيرة لكنها لم تخرج من بيتي كلها قد دوّنتها على الجدران لو كنت هنا لرأيت هذا ..

الناس تزيّن جدران منازلهم بالصور والأوراق المزخرفة والملونة وبالرسومات الفنية بينما كنت أزيّن جدران بيتي بأفكاري وفلسفتي ، لهذا صرتُ مجنونا ، ألا تعتقدن هذا أنت أيضا يا رنوة ؟

رنوة : أحب الجنون وأحب هذا النوع منه بالتحديد ..
يبدوا أنني أتفق معك بهذا فأنا لدي بعض الاهتمام
بالأفكار وأحب أن أدونها ...

ساري : حتى الجن يهتمون بالأفكار ؟ (قالها بسخرية
يمازحها)

رنوة : أتريد أن ترى عالمهم لكن أخشى أن يصبح
شعرك أبيضاً مع صغر سنك ...

ساري : الشيب وقار ثم إني أرغب ببياض الشعر
لعل أقاربي وأصدقائي يرون شيبتي فيحترموني مرة
واحدة في العمر على الأقل ..

سأذهب للنوم رنوة ، لقد تعبت كثيراً ..

ذهب ساري لينام بعد أن أقفل كل شيء ...

فصل

استيقظ ساري على صوت خاطر وهو يقول : دكتور ، لقد استيقظ ساري يا دكتور ، أسرع لقد استيقظ ..

الدكتور : الحمد لله على سلامتكم يا ابني ، لا تتحرك ، ارتح قليلا ..

نظر ساري من حوله فوجد نفسه في إحدى المستشفيات وعلى سرير أبيض وعن يمينه رجل رفعت قدمه المكسورة ، وعن يساره جلس صديقه خاطر .. وفي نفسه يقول : أين أنا ، ماذا حصل ؟

التفت ساري إلى خاطر وسأله : ماذا حدث ، لا أتذكر شيئاً . ألم تصب ليلة امس بالتواء يا خاطر . كنت في الأمس أتكلم إلى ... (كان يعني رنوة) لكنه توقف ولم يلفظ اسمها ..

خاطر : ارتح يا ساري ، لقد جئت لزيارتك فوجدتك ملقى على الأرض أمام بيتك ، ربما أغمي عليك لسبب ما ، فأخذتك إلى المستشفى لقد كنت في

غيبوبة أكثر من أربعين يوما .. انظر إلى جسدك
الهزيل ، وإلى وجهك النحيف ، يجب أن تأكل
وتستعيد عافيتك .. ثم إني لم أصب بأي التواء ..

ساري : أنا .. نمت كل هذه الفترة ، ماذا يحصل ..
سأصاب بالجنون .

لقد كانت قصة رنوة مجرد كابوس ، لكنها كانت أنثى
رائعة ، لقد حرّكت في داخله خلايا الحب من جديد ،
وطوال فترة نقاهته وهو يفكر في رنوة ، هل يمكن
أن أحب امرأة من نسج الخيال وارتوي من بحر
الوهم ، هل سأكتب فيها الأشعار أم أنتظر رسالة
منها في بريدي ، هذا محال لن يتحقق هذا ..

وما هي إلا لحظات حتى سمع خاطرا يناديه ، يا
ساري بماذا تفكر ؟

فأنشد ساري :

وأصابني بفراقه

حتى حُرمت من الوسن

وبهجره أوتفتي

سَلَّمني ليد المحن

عَدَّني حبي له

وأنا به كالمرتهن

يا ليتني لم أراه

وليته ذا لم يكن

ثم خرجت من داخله زفرة كادت تحرق ما صادفته ،
لقد نسي ساري ما به من ألم وأصبح ألمه الوحيد
عيشه في وهم الحلم وتفكيره في رنوة التي ذهبت
عندما أيقظه خاطر بصوته لمّا دعا الطبيب ..

فصل :

لقد تغيّرت حياة ساري كثيرا ، أصابه الاحباط
وعندما وصل إلا بيته لم يجد حتى شبكة الانترنت ،
نعم كله كان وهما وكابوسا ، مضت أيام لا يتذوق
فيه طعاما ولا يستسيغ شرابا وما هي إلا أيام حتى
طلب من خاطر أن يساعده في اىصال شبكة
الانترنت إلى حاسوبه ، وصنع لنفسه بريدا يشبه ذلك
البريد .. لقد صار ساري كالمجنون الفاقد ولا يزال
يتفقد بريده في كل يوم ظنا منه أنه سيجد رسالة من
رنوة ، وهو يعلم أنها كانت وهما وحلما ..

لم يقصّر خاطر خدمته مع ساري وأراد أن يستعيد
عافيته ففتح له حساب في موقع (فيس بوك) لعله
أن يتحدث إلى الناس فيرى بذلك ضوءا وأملا جديدا
..

اعتاد ساري على وضعه الحالي والجديد ، حتى
وصلته رسالة من فتاة إلى موقع الفيس بوك سألته

تلك الفتاة عن أشياء فأجابها ، لم يأخذ ذلك إلا دقائق
، ثم عادت بعد شهر من ذلك تقول له :

أرجوك لا ترسل لي شيئا ..

فأجاب ساري بكل هدوء .. حاضر ، إن شاء الله ..
مع أنه لم ير اسلها أبدا ولم يكلمها إلا في ذلك اليوم ..

عادت الفتاة بعد يوم من هذا لترسل إليه :

أنت شاب رائع يا ساري ، أحسد من ستكون زوجها

رد ساري : شكرا لك ..

في ذلك الوقت لم يشغل تفكير ساري إلا تلك الفتاة
التي جاءت في غيبوبته وعاش معها لحظات من
الرعب والحب .. صحيح أنه لم يفصح لها عن حبه
لكنه اعتاد الحديث إليها .. وكان جلّ وقته يفكر
بتلك الأحداث ولهذا كان حديثه مع الفتاة كقطعة الثلج
القاسية وقد كانت فتاة (الفيس بوك) غريبة أيضا

فمرة تطلب منه أن لا يرسلها ، ومرة أخرى تمتدحه .. حتى أنها أرسلت له رسالة أخرى تقول فيها :

لا تظن أنك تستطيع خداعي كما تخدع بقية النساء ، أنا لا يمكن أن يخدعني أحد ..

نظر ساري إلى الرسالة كثيرا ، ثم أجاب : نعم صدقت لا أستطيع أن أخدعك كما أريد أن تفهمي أنني أحمق في الخداع ... وأرجوا أن لا ترسلي لي شيئا آخر فهناك حرب طاحنة في داخلي ، ولست مؤهلا للحديث مع أحد ..

كل ما أستطيع قوله أن ساري في حالة من الإحباط وكأنه يردد (**وأمرضني الهوى لهوان حظي**) ألم تقرأ كلماته هذه وردّه كان واضحا جدا أنه لا يهتم لأحد ولا يكثرث لأي شيء .

ولم يكن ساري أحمقا عن لغة الكلام لكي لا يفهم مراد تلك الفتاة لكن حبه لرنوة أعمى قلبه عن التفكير ، فساري فيلسوف فاهم ، لقد انتبه بعد فترة وفكر ،

أظن أن هذه الفتاة حساسة ولديها أنفة ، أرادت أن تتعرف وتعترف بحبها لساري ، ربما رأت صورته أو قرأت شيئاً من كلماته لكنها لا تريد أن تعترف بحبها له ، أو إعجابها ، **ومن المعلوم أن صاحب المشاكل ومن يتفنن في خلقها هو إنسان يخفي شيئاً في داخله ويود أن يظهره للناس ، يود لو أنه يستطيع ايصاله إلى من حوله ، لكن ساري ليس لديه أي وقت للحديث إليها ، كما أن قلبه كان معقفاً بالوهم الذي رآه ولا زال متألماً لما فقده .**

قرّر ساري أن يبتعد قليلاً عن الشبكة ، وانشغل بكتابة بعض القصص ، والأشعار ويقراً كتب الأولين ويكتشف من خلالها أسرار الأمصار ، شاب يحب الاطلاع كثيراً ، يحب التاريخ وحكاياته ، وما يخفيه من آلام وأحزان وقصص وأساطير ، وما هي إلا أيام وليالي حتى عاد إلى حاسوبه ، لقد وجد رسالة من تلك الفتاة ، تقول له فيها :

أين أنت ؟ لماذا غبت ؟ ...

أجاب ساري : الحمد لله أنا بخير ، لكن لماذا تسألين
عني أعني ما سرّ سؤالك ؟

بعد ذلك ترك ساري حاسوبه وانشغل بترتيب غرفته
، وما هي إلا دقائق حتى دخلت الفتاة وهي تقول :
الحمد لله على سلامتك ، ليس هناك أي سبب إنما
أحببت أن أتحدّث إليك .

ساري : أهلا بك ومرحبا .. الحمد لله بخير ، نعم أنا
بخير ، ماذا عنك ؟

الفتاة : نشكر الله ، أردت أن أسألك ، ما اسمك
الحقيقي .؟

ساري : كما تزين اسمي مكتوب ، ساري اسمي
الحقيقي ..

الفتاة : اووه آسفة ... ظننته لقبك .. أنا أعيش في
أوربا ، وأنا من [وذكرت بلدها العربي] ...

ساري : أهلين فيكِ .. أعتذر لدي بعض الأعمال
إذا أردت شيئا اكتبيه لي سأقرأه لاحقا ..

غضبت كثيرا لهذا الأسلوب الجاف ، لكنها لا زالت
مصرّة على الحديث معه ..

بعد أن انتهى من ترتيب غرفته ، صنع بعض الشاي
وجلس ينظر إلى الشارع من نافذته ، تذكر رنوة التي
قالت له أغلق نافذة الشباك أشعر بالبرد ، نعم تذكرها
فنزلت دمعة حارقة تشق اخدودا في خده ، وسارع
في اغلاق نافذته ، ثم رجع إلى حاسوبه ليجد تلك
الفتاة وقد كتبت له : أرجوك أريد أن أعرف عنك
أكثر .. إذا كنت لا تمانع ..

ساري : حسنا سأحدث إليك لكن قبل هذا أريد معرفة
اسمك ؟

الفتاة : اسمي رنوة وأنا منذ فترة

لا زالت رنوة تكتب وتكتب ، ولكن ساري أغلق
حاسوبه ، ودخل في فراشه ، أصابته ارتعاشة في

جسده ، كأنها غمسته في بحر متجمد وأخرجته إلى
القطب الجنوبي ..

ماذا يحصل ، هل هذه هي رنوة التي كلّمته من قبل
، أم كان اسمها مصادفة ، يا رب ، هل أنا أصبحتُ
مجنونا أم ماذا ...

ربما كان اتفاقا في الاسم فقط ، ثم إن ساري أخذه
الشroud كالعادة وصار يقول لنفسه :

الوهم قد يصبح حقيقة والخيال يتحوّل إلى واقع
وربما تأتينا رسائل في النوم لتخبرنا عن واقعنا
وحياتنا خاصة عندما تزدهم في قلوبنا الأفكار ولا
نعرف أين نسير ، فبرحمة الله نرى سبيل الرشاد ،
لكن ساري أراد أن يكون حذرا في كل ما يفعله ولهذا
فكّر في معاملة الفتاة كما عاملته رنوة أعني
بغموضها ، كان يتكلم إليها بطريقة مريبة ، ربما
شعرت بأنه غير طبيعي لأنه في الحقيقة كذلك .

في اليوم التالي دخل ساري إلى الشبكة ليجد رنوة بانتظاره ، تحدّثا لفترة من الوقت ، سألته عن دراسته وإلى أين انتهت ...

في الحقيقة لقد توقّف ساري عن الدراسة عندما انتهى من الثانوية مع أنه كان من المجتهدين إلا أن حالته المادية لم تسمح له بالمتابعة كان ذكيا مجتهدا مثابرا ، لكن الجامعات تريد اهتماما كبيرا ومتطلبات أكثر فتوقّف عند هذا الحد فهو بحاجة للمال كي يستطيع العيش فعمل في تدريس بعض الأطفال من القرى المجاورة في بيوتهم وينال أجرة من آبائهم تكفيه ليعيش حياته العادية تكفيه لشراء بعض الكتب الصغيرة ليطلّع عليها ..

شعر ساري بأن رنوة قد أخفت في نفسها شيئا ما فسألها بدون أن ينتظر : أشعر بأن كلامي لم يعجبك يا رنوة ، تحدّثي إلي بصراحة أود ذلك حقًا .

ما هي إلا دقائق قليلة حتى كتبت إليه : وهل يعجبك هذا الوضع الذي أنت فيه ألا تريد أن تبني حياة أفضل من هذه ، انظر إلى الناس كيف تعيش وانظر إلى اهتمامهم وغربتهم من أجل النجاح وبناء أنفسهم ، أريد أن أقول لك أنت مخطئ جدًا ولأكون صريحة ، أكثر أنت تعيش في بحر من الأوهام مليء بالفشل ، اخرج إلى الشاطئ وابتحث عن ذاتك ...

ساري : توقفي ...

رنوة : دعني أكمل ما بدأت به ..

ساري : تفضلي :

رنوة : أتظن أننا نكافح فقط لأجل أن نعيش لأنفسنا ، لقد خرجت إلى بلاد الغربية ، ابتعدت عن أهلي ووطني لأجل أن أدخل السرور إليهم ، ولو طال انتظارهم سأبذل ما بوسعي لأجل أن أدخله إلى قلوبهم وسأسألك سؤالاً واحداً ، لو مت يا ساري ماذا ستكون ردة فعل من حولك من الناس ؟

ساري : ضحك قليلا ثم قال ، في حياتي ليس لي قيمة لديهم فكيف إذا مت ، على الأغلب أنهم لن يهتموا بذلك ...

رنوة : وهل أنت فرح بهذا ؟ هل أنت مسرور لذلك ؟
اسمح لي أن أقول لك كلمة ولا تغضب مني
لصراحتي : أنت إنسان لم تنفك فلسفتك ألم تفكر وترسم خطة لمستقبلك لتعيش كأني إنسان حياة أفضل ، لا بد أن تضع هذا بعين الاعتبار إذا أردت أن تموت فمُت لكن خُلف إنجازا يذكرونك به على الأقل ، لا تكن فاشلا ...

ساري : يكفي رنوة ...

لقد نزلت من عينيه دمعات لقد شعر بأن هذه الكلمات هي ما كان يبحث عنها منذ أن صار وحيدا
ثم أخبرها بأن لا تقلق عليه ، وأنه سيعاود الدخول والحديث إليها في الغد إن شاء الله .

لقد شعر بأنه يحتاج لهواء نقي ، أراد أن يتنفس
بعض الأوكسجين ليغذّي دماغه لقد كانت كلماتها
مفتاحا جديدا من مفاتيح الخير لساري هكذا كان يظن
وما هي الا ساعة حتى فكّر بزيارة خاطر مع أنها
ساعة متأخرة لكنه يعلم أن خاطر في غرفته
المعزولة لا ينام حتى يؤذن للفجر ، فطرق الباب
وخرج إليه ورحّب به ..

خاطر: زيارتك رائعة وقد جاءت في وقتها ، صنعت
بعض الشاي لنشربه ونتحدث قليلا فأنا بحاجة إليك ،
لدي موضوع يشغل تفكيري ..

ساري : تفضل خاطر ، تحدث أنا كلّّي عندك ..

خاطر : أولا سنشرب الشاي ثم نتحدث في
الموضوع .

كانت غرفة خاطر مرتّبة نظيفة وضع فيها كل ما
يلزمه فهناك موقد ليصنع مشروباته الساخنة ولديه

بعض الفاكهة المجففة وسرير وحاسوب وأوراق
وهاتف ..

في الحقيقة يا ساري أشعر بأني قد أحببت ، لم أشعر
من قبل بالوحدة كنت سآتي إليك لكنك جئت بمفردك
ساري : ومنذ متى وأين أحببت وكيف ..

خاطر : ابنة عمّ لي لم يسبق لي أن رأيتها منذ أن كنا
صغارا وفي الأمس دخلت بيتهم فرأيتها وقد كبرت
وازدادت رقة وجمالا ، لكني تحدثت إلى أمي لا أريد
أن أخسرها ، لقد وعدتني أمي بأن تزورهم ..

ساري : لا حرج يا خاطر ، لماذا تشعر بالضيق
فأنت تطرق البيت من بابه وأنت رجل شهم وكريم
وجميل لن ترفضك إن شاء الله ، احضر الفاكهة
لنتذوق فرحة حبّك .. [ضحك خاطر وابتسم إليه]

لقد جاء ساري ليشكوا ما به من ألم لخاطر لكنه لم
يتفوّه بكلمة خوفا أن ينزع فرحه ، ثم عاد إلى منزله
وفي الطريق صار يحدث نفسه ..

[صدقت رنوة فالناس تعيش حياتها و يفكرون
بالزواج والحب والمال ، وأنا لا أجد أمامي إلا
الفشل ، لقد نبهتني رنوة وأيقظتني من سباتي ، نعم
والله لقد كنت أعيش على هامش الصفحات قلما
ينظر إليها أحد ، ماذا أريد من الحياة وأين سأكون ،
آه لم تنفني فلسفتي لكني والله كنت ولا زلت أحب
الخير للناس لماذا لم أجد من يوقظني من غفلي
هذه ..]

دخل ساري وجلس يحدث رنوة ، ماذا أصنع يا
رنوة .

رنوة : أكمل دراستك يا ساري ، أنت ذكي ومجتهد

ساري : لا يا رنوة لا أستطيع أن أكمل دراستي فهي
تحتاج للمال ، لا أستطيع أن أدخل الجامعة وليس
معني مال ...

رنوة : فكر جيدا بكلامي ، أنت مجرد فاشل إن لم
تفكر في التقدم حاول واجتهد وابحث عن عمل تدر

منه مالا ، ليتك عملت بجد لكنتَ الآن في عداد الأثرياء وتستطيع حينها أن تحقق كل أحلامك ..

كانت رنوة من عائلة ثرية ولهذا خرجت إلى بلاد بعيدة لتدرس ، لكن الغني لا يشعر بألم الفقراء ولهذا يظن أن أمور الحياة بسيطة فيتلفظ بالكلمة العادية في نظره الجارحة في نظر الفقير المعدم ، ومنذ متى شعر الغني بالفقير ، لقد كان ليوسف عليه السلام حكمة كبيرة عندما كان يكثر من الصوم والجوع حتى لا يشبع فينسى الجائعين وكان الكثير من أهل الكرم يعلّقون سكاكينهم وقدورهم بالقرب من الأبواب حتى لا ينسوا أن يكرموا ضيوفهم لكن الأغنياء لا يتذكرون ألم فقير حتى يمرضوا أو يصيبهم بلاء والكثير منهم لا يتذكرهم حتى آخر ما يتبقى من أرواحهم حالة النزع ، منذ متى ينتظر الفقير من الغني جودا وكرما ، وقد امتلأت معدته حتى أرهاقته وأنسته ذكر نفسه ليذكر غيره ..

ومع أن علاقته برنوة عادية ولم تتجاوز الكلام الطبيعي إلا أنها تتحدث إليه وكأنها ضميره الذي يؤنّبه أو كأنها أرسلت إليه ليرى الحياة من جديد ، لكن كلماتها القاسية سببت له احباطا كبيرا ، ونام على سريره لا يقوم إلا لصلاة أو غداء ، حتى أنه كره الحاسوب والانترنت ، بقي على هذه الحال أكثر من يومين ،كاد أن يصاب بالجنون ، ينظر إلى الناس من نافذته الصغيرة ، ويتذكر أصحابه في الجامعة بين لهو مع الفتيات وبين سقوط وفشل ، وحتى لو بقي في السنة الأولى أكثر من سنة لا يضيره شيء فوالده يدفع وأمه ترقع .. وبعضهم تزوّج وأنجب ، وبعضهم سافر باحثا عن رزقه، وأنت يا ساري لازلت في بيت كئيب مظلم ، لا جامعات ولا عمل ولا طموحات وفوقها قد لبست ثوب الكسل .. ففكر واعمل وحقّق أهدافك فلو سألت أحدهم عنك لما كنت هنا ولكنك إن بقيت على حالك لن تجد منهم إلا أكفانك البيضاء هذا وربما متّ في غرفتك ولم يكتشفوا ذلك إلا بعد سنوات ...

فصل

[الأمور السيئة تجتمع أحيانا ويلحق بعضها بعضا
وتظن أنها ستؤذيك كثيرا وأن حظك العاثر هو من
جاء بها إليك ، لكنك لا تعلم أنها تجر خلفها الخير
الثقيل ..]

خرج ساري في الصباح والتقى بأحد أصحابه
القدامى كان اسمه (سالم) .

سالم : أهلا بك يا ساري ، أين أنت منذ زمن بعيد لم
أرك ، هل تخرجت من الجامعة ؟ ماذا درست ..

ساري : (تلثم لسانه وارتبك جسده) أ . أ أهلا
سالم كيف حالك أرجوا أن تكون بخير ..

سالم : الحمد لله ، هناك مقهى قريب دعنا نذهب
ونتكلم ، منذ زمن طويل لم أرك وأود أن أتحدث إليك

ساري : حسنا ، هيا بنا إنني سعيد جدا برؤيتك ..

في الحقيقة لم يسعد لرؤيته لأنه أحد أصدقاءه
الساخرين والذين عاشوا حياتهم بترف وثناء ، وكان
ممن يشترون المواد في الجامعات ويغرون الأساتذة
بأموالهم ..

جلس ساري مع صاحبه وما هي إلا لحظات حتى
اجتمع معهم أحمد وهيثم كلهم من أصدقاء ساري في
المدرسة عندما كانوا في الثانوية .

لم يتكلم ساري إلا بضع كلمات وانشغلوا هم بشرب
الشاي مع اشتغال فنون المظاهر ، فتارة يتحدثون
عن الفتيات في الجامعات وتارة أخرى يتحدثون
عن السنوات التي قضاها في اللهو في المدن
والسهرات.

أحمد تخرّج في كلية الصيدلة وهيثم أخذ الطب لكنه
في السنة الرابعة وأما سالم درس الأدب وتخرّج ،
ولم يمضِ من الوقت الكثير حتى سألوا ساري عن

دراسته ، وهم يعلمون بفقره وفقده لأهله في تلك
الحادثة .

ساري : لم أدخل الجامعة ..

المجموعة : لماذا لم تدخل الجامعة ، هل أنت أحمق
، لقد أضعت عمرك ومستقبلك ..

ساري : أي مستقبل يتحدثون عنه ، كفاني الله
واستغثيت عن الناس .

وكانت الحقيقة أنه يحتقر نفسه ويحتقر الفشل ولا
يستطيع أن يبوح بفقره مع غناهم ، فأخبرهم أنه لا
يرغب بالجامعة..

سالم : دعوه ، سيندم لاحقا عندما يرى جميع
أصدقائه قد تخرّجوا من جامعاتهم ..

ساري : لماذا أندم ، أخلقت الدنيا بالدراسة ،
وانقضت أيامها بها ، أنتم لا تعلمون شيئا عن الحياة
، للأسف .

سالم : منذ أن كنت في المدرسة وأن لا تهتم
بدراستك .

ساري : أتظن أنك صادق فيما تدّعي ، ربما صدقت
لقد كنت أضيّع وقتي بكتابة واجباتك ، أم نسيت هذا .

سالم : لقد كنت أتصدق عليك ببعض الطعام لأجل أن
تعيش ولم يكن همي الواجبات ..

تغيّر وجه ساري كثيرا فهو يعلم بكذبه لكنه لم يرد
عليه بأكثر مما قاله ..

ساري : اعدروني ، قد أن لي أن أعود إلى البيت .

هيثم : بالتوفيق أخي ساري ..

كانت نظراتهم مليئة بالازدراء واللؤم ، ومع خروج
ساري صادف أحد أساتذته الذين درّسوه في المرحلة
الثانوية ، نظر إليه ساري لدقيقة ، ثم خرج مسرعا
إلى بيته ..

لقد كان هذا الأستاذ أحد الذين سخروا منه في المدرسة ، أحس بضيق شديد ، كلهم يعلمون أن ساري لا يحتاج لذكاء أو اجتهاد ، لقد كان بالفعل مجتهدا ذكيا لكن أضواء النجاح لم تسلط عليه ، لأنه لا يجد أسبابه ، كيف يحقق نجاحاته ولا يجد تشجيعا من أحد ولا حتى بعض المال ليحقق أهدافه ..

بعدها بأيام سمع ساري أن صديقه العزيز خاطر قرر أن يسافر إلى إحدى الدول للعمل فقد سئمت له فرصة في إحدى الشركات الضخمة في مجال التسويق ، انتظر ساري أن يخبره خاطر بقراره وسفره وقد انزعج قليلا لأنه لم يخبره بهذا الأمر وسمعه من الناس قبل أن يسمعه من خاطر ، ومضت أيام على هذه القصة ولم يرفع خاطر سماعة الهاتف على الأقل لإخبار ساري بسفره القريب ، حتى سافر خاطر دون أن يعلم ساري برحيله ، في هذه الأثناء فقد ساري الثقة بكل الناس لم يعد يهتم بأحد وأجبرته الظروف أن يجلس في بيته لأيام

وعاد ليعمل ليوم واحد في الأسبوع ينظف أحد المحلات التجارية الكبيرة في يوم الإجازة فيعطونه بعض المال يكفيه لأسبوع كامل مع بعض المواد الغذائية التي شارفت على الانتهاء .. ولا زال ساري يتهرب من الواقع رغم حديث رنوة له وكانت محقة وهو يعلم أنها على حق لكنه لا يعلم كيف سيبدأ ، وليس له من يشد ظهره به ويساعده للخروج من أزمته هذه ولا تتفع الكلمات مقارنة بالأفعال .. وكان ساري يعلم أن عمله بالتنظيف ذل لكنه فعل هذا حتى لا يختلط بأحد من الناس ، إن انعدام الثقة مرض مزمن يتبعه الكسل والملل والاعتزال ، يجعل منا أناسا يحبون الظلام ويعشقون الخيال ، ومضى على هذا أكثر من خمسة أشهر ، خلال هذه الفترة كان ساري يتحدث إلى رنوة في كل يوم ، وكانت هي تتحدث إليه عن حياتها ومشاكلها فيهدئ من روعها ويساعدها حتى تعلقت به كثيرا رغم الفارق ورغم علمها بأنه فاشل في نظر الجميع وازداد تعلقها به فإذا حدث أن غاب ليوم واحد بكت بكاء شديدا ،

شعر ساري بأن رنوة قد تعلّق قلبها به إلى درجة كبيرة ، وشعر بحبّها له ، في هذه الأثناء كان لساري قلب لا يثق بأحد ولا يفكّر بالحب أبداً ، أخبرها أنها إن لم تتزن بعواطفها معه سيقطع الانترنت ، ويقطع كل ما يصله بها ، وعدته أن لا تعود للبكاء ، لكن لا جدوى من الوعود إن عشق القلب و لم يتلفظ بكلمة حب واحدة خلال حديثه إليها ، أفصحت عن حبها له كثيرا ...

وفي أحد الأيام أخبرته بأنها ترغب به زوجها لها ، ذهلت كثيرا وسألها : هل تقبل عائلتك بالزواج من رجل فقير فاشل لم يكمل دراسته ولم يستطع انجاز أي شيء في حياته ، أترغب عائلتك أن تزوج ابنتها الناجحة الثرية برجل لا يملك إلا بيتا يعيش به ، ثم إنني مجنون يا رنوة ، نعم مجنون ، كيف أعيش في بيت مظلم حتى نشر بعض الناس أن بيتي مسكون من الجن خاصة أن المقبرة قريبة منه ، ألا تظني أنك

دخلت في قصة حب مستحيلة ..؟ كانت كلماته لأجل
أن يزيل عنها فكرة الزواج ..

رنوة : لن أتزوج طيلة حياتي وحتى أموت إلا منك
ولن أجد أفضل منك وإن كان على الغنى فأهلي لا
يهمهم الغنى لكن تحتاج لإكمال دراستك فقط ، نعم يا
ساري ابدأ من جديد وابحث عن جامعة لإكمال
دراستك وخلال السنوات القادمة ستحقق إنجازات
كثيرة ، وقتئذ سيوافق والدي على زواجنا ..

ساري : وإن لم يوافق ؟

رنوة : سأهرب إليك ، لن يمنعني أحد من ذلك ،
سأعيش معك ولو كانت خيمة صغيرة ...

ساري : (يضحك) كنت أظن أنني مجنون ، لكنني
لم أرَ أكثر جنونا منك ، هل ستهربين وتخذلين أهلك
الذين دفعوا كل ما لديهم لأجلك ؟ احذري من قول
هذا ، فإنه كلام كبير يسقط الثقة منك ...

رنوة : حاضر .. حبيبي (ولم تكمل كلامها لأن ساري قاطعها)

ساري : لا تذكرى كلمة حب ، إياك فهذه الكلمة بحثت عنها في قاموسي وحذفتها نهائيا منه ، إن كان هناك حب فبعد الزواج سيكون له طعم حقيقي ..

رنوة : امتلأ فمها بالهواء وقالت (حاضر)

فصل

في الليلة التالية تحدث إلى رنوة وقد كانت حزينة بعض الشيء ، أحس ساري بحزنها فسألها عن ذلك لكنها بقيت صامته لا تتحدث إليه ، شعر ساري بالانزعاج والضييق ، احكي لي ماذا حصل ؟

رنوة : لقد أخبرت أمي عنك وتحدثت إليها فأخبرت والدي ووبّخني ، وقال أنه لن يزوّجني إلا من أقاربي

..

ساري : وماذا بعد ..؟

رنوة : لا شيء ، لقد أخبرتهم أنني سأفعل ما يرضيني ، ولن أدهم يفعلون هذا ..

ساري : هذا عقوق .. هل تتحدثين إلى أهلك بهذه الطريقة البشعة ألا تعلمي أنك قد أخطأت بالحديث ، إن كنت لا ترغبين بالزواج ممن اختاروه لك هذا شأنك ، لكن أن تعتدي على أبويك وترفعي صوتك هذا لا أقبله البتة ..

رنوة : أعتذر .. أرجوك سامحني ،، ماذا أفعل ..

ساري : اتصلي بهم الآن واعتذري إليهم ، وأخبرهم أن موضوع زواجك مؤجل حتى تنتهي من دراستك ...

رنوة : حاضر ، سأقوم بهذا ..

شعر ساري بالضيق ، لقد أوقع نفسه في مصيبة كبيرة حيث تعلقت به فتاة وكان زواجه مستحيلا جدا

، فهي بعيدة عنه و من بلد آخر وهي ثرية تدرس
في أرقى الجامعات وعائلتها الكريمة لا ترغب به
أصلا ، على العكس من ذلك فهو مجرد فاشل في
نظر الناس وفقير معدم ، بل يراه البعض مجرد
مجنون ..

ياالله كيف يحل مشكلته هذه ، حاول أن يبتعد عنها
لكنها تزداد تعلّقا فيه كل يوم ، وفي أحد الأيام
أخبرها أنه سيتزوج وكان ذلك مجرد كلام حتى
يبعدها عنه وتنتهي الحكاية ، لكنها أرسلت إليه أنها
ستقتل نفسها إن فكّر بهذا .. وأقسمت على هذا ..

كانت تقول له : لا خير في حياتي إن كنت سترحل
عني ، وتارة تقول : إن تزوجتَ يا ساري سأفعل كذا
وكذا ..

كانت تهدده بنفسها مرة بالقتل ومرة بترك دراستها
ومرة ...

لم يشكّ ساري بصدق حبها في أي يوم بل كان يعلم أنها صادقة مخلصّة لكن ساري لم يفكر بالحب مع انعدام المؤهلات ، كان يعلم أن الأمر مستحيل للغاية لما ذكرته من أسباب أنفا ، وظل ساري في هذا الطريق الذي لم يرضَ عنه أبداً ، إذ كان يحدث نفسه دائماً بأن طريقته خاطئة وأنها لا تجلب له إلا المصائب ، **والعاقل من قطع حبال الأخطاء قبل أن تكبر** ، لكن عاطفته وكرهه للظلم وحنانه وغرбите حال دون ذلك ، كان صريحا معها ويذكرها بين الحين والآخر أن علاقتهم لن تتم ولن تنتهي على خير ، لكنها أخبرته وقالت :

لماذا تستعجل الأمور لن أنتهي من دراستي هذه إلا بعد ثلاث أو أربع سنوات خلال هذا سنجد حلا لموضوعنا ..

لقد كانت شيطانة بالفعل لن تزول وسوستها له حتى يأذن الله ، وبقيت الأمور على حالها ، محادثات يومية وأفراح وأحزان ومصائب وأوهام .

فصل

موت ساري

دخل موعد الإجازة الصيفية وكان ذلك من رحمة الله أن تبتعد رنوة بعض الوقت عن ساري ، لينفذ قراراته بعيدا عن شكواها وتعلّقها به ، كانت معظم قرارات ساري مقيّدة بسببها ومن ضمن هذه القرارات كان القرار الأكثر أهمية وهو المغادرة والسفر ، نعم لقد قرّر ساري بعد آخر لقاء بأصحابه أن يسافر ليبحث عن نفسه ورزقه ومع سفر رنوة إلى بلادها أتاح له فرصة كبيرة أن يسافر بدون إزعاج أحد و رنوة لن تستطيع أن تتحدث إليه بعد وصولها إلى عائلتها لأنها ستنشغل بهم وبصديقاتها عنه ، هنا بدأت الحكاية .

بعد أن آخر لقاء له مع أصحابه وسخريتهم الواضح قرر ساري أن يفعل المستحيل لأجل أن يثبت وجوده بين الناس وأن يكسب ثقتهم به رغم أنوفهم ، وبعد

رحلة طويلة في بلاد الأفكار ومعاناة شديدة بين صفحات الحياة كان قراره الرحيل فبلاد الغريب في وطنه هي بلاد الابتعاد فكم من معدم وجد نفسه بين أودية الغربة فحقق أمانيه وأنجز طموحاته ، وانتصر على أعدائه ومن نافق ضده ونشر سيرته وظلمه .

لم يحتج ساري إلا لقليل من المال وبعض الثياب لقد كان لديه بعض الذهب لوالدته رحمها الله كانت ترتديه لتتزين به لكنها تركته ورحلت ، لم تنتفع بهذا الذهب كما أن الكثير منا لن ينتفع بكل شيء يملكه وسيتركه شاء أم أبى ، باع الذهب وباع بعض الأمتعة وكان يبيع هذا كله بسرية تامة بعيدا عن أنظار أقاربه وجيرانه وكانت غايته الرحيل بدون أن يعلموا هذا ، ولم يقرر في يوم أن يخبرهم برحيله ، فجهّز متاعه للرحيل بعد أن باع كل ما يملكه داخل البيت ، وفي تلك الليلة المظلمة بعد أن اتفق مع أحد الرجال من القرية المجاورة ممن يملكون سيارة للأجرة فحمل أمتعته وأقفل باب بيته وسافر ، كان

ذلك في الصيف عندما أخذ الطلاب اجازاتهم واسترخى الناس وسلّموا أنفسهم للحرّ والصيف ، وأما ساري فقد وصل إلى تلك البلاد ومضت أيام على رحيله لكن بيته المقفل لم يزره أحد وكما قال في السابق لخطر أنه لو مات أو عاش لن يكثرث أحد ولن يسأل عنه أي مخلوق ، وصادف في ذلك اليوم وأثناء القيلولة أن لعب أطفال بالقرب من بيت ساري ، فقال أحدهم للبقية : هذا بيت المجنون ، لم نره منذ زمن ربما قد مات ، فضحك الجميع ونطق أحدهم ، لماذا لا نحرق بيته فنتخلص منه ومن جنونه ، ظن الأطفال أن إحراق البيت سيريح أهل القرية من جنون ساري ، فهؤلاء الأطفال سمعوا من آبائهم وأمهاتهم أن هذا المجنون مزعج ، ولا بد من طرده حتى لا يعود إلى القرية بعدها ، كانت هذه الكلمات من زوجة عمّ ساري حيث أرادت أن تنتقم من ساري لعدم بيعه للبيت لكن الأطفال مع براءتهم اكتسبوا صفات وتصرفات قبيحة من أسرهم ففعلوا ما فعلوا ، فقد جمعوا الكثير من الأعشاب حول بيت ساري

الصغير وأضرموا فيه النيران ومع حرارة الصيف
ازدادت النيران حتى كادت تذيب الحجارة فاحترق
البيت بأكمله وكان بعض الناس ينظر من نافذة بيته
ولا يتحرك لأجل أن يطفئ النيران فاجتمع بعض
الناس وحاولوا اخمادها لكنها لم تجد ما تأكله بعد أن
حرق كل شيء ولم يتبقى من بيت ساري إلا
الحجارة السوداء .

لم يتجرا أحد من الناس ليبحث عن جثة ساري بل
قال بعضهم ربما صارت رمادا ، انسوا الأمر فهو
لا بد من موته بعد موت عائلته لكنه تأخر قليلا ،
وقال بعضهم لا فائدة من البحث اردموا بيتهم فوقه
ليكون له قبرا ولحدا ، ولماذا نبحت عنه وقد مات
وها هي المقبرة بجانبه ستمتد في يوم من الايام
ليصبح بيته من ضمن سورها فيكون قبرا على أي
حال ..

انتهى ذلك اليوم بموت ساري كما ظنوا ولم يعلموا
أن ساري قد رحل قبل أن يهلك ، وأما من نقله

بسيارة الأجرة فهو من قرية مجاورة ولم يعلم بما حدث حتى يبوح بهذا ..

وعند نزوله من الطائرة وقبل أن يضع قدميه على أرض تلك البلاد ، سأل الله أن يرزقه خير هذه البلاد وأن يعيده من شر الاشرار فيها .

جلس ساري في استراحة المطار أكثر من ساعه ، أخذ كأساً من القهوة وجعل يفكر :

هذه بلادك يا ساري هذه وطنك الثاني ، إن خسرت فيها لن تستطيع العودة أبدا ، وستموت هنا بعيدا غريبا وإن حققت طموحاتك فخيرك هنا ، ركّز اهتمامك الآن للبحث عن عمل وتخيل نفسك لا تملك إلا أجرة المنزل الذي ستسكنه ، وتخيل أنك لا تجد إلا بعضاً من خبز حتى تجد عملك وتستقر ..

استأجر ساري غرفة ووضع فيها أثاثه ودفع ايجارها لمدة ثلاث سنوات مقدّما ، لم يوافق صاحب البيت

في البداية لكن ساري أصرّ على فعل هذا ووثق كل شيء بعقود ..

كانت فكرة ساري أن لا يبقى معه المال لكي لا يضيّعه أو يعتمد عليه فيكسل عن البحث بين الشركات والمكاتب عن عمل يبدأ فيه حياته ، وكانت خطّته ذكية حيث أن المال أنفقه في ايجار البيت ولم يبقَ معه إلا نفقة شهر ، وجلس يحاسب نفسه ويحسب لها وجعل نفقة الشهر تكفيه لشهور أخرى ، فقد قرّر أن يأكل الخبز ويشرب الماء فقط ومرة واحدة في الاسبوع يأكل طعاما دسما بشرط أن ينتج في الأسبوع كي تكون مكافئة لعمله وتعبه ..

كان صنيعه ضربا من جنون ، مجازفة كبيرة حين وضع ماله كله في ايجار البيت لكن من يفكّر قليلا بعقله وجد أن ما فعله ساري يدل على حكمة كبيرة .. فلن يموت من جوع وكان أهم شيء له أن يكون له مأوى وقد ترك لنفسه مجالا كبيرا لبحث عن عمل

وغذاء أما المأوى فيإجار ثلاث سنوات كافية لتحقيق
طموحاته .

مضى شهر على ذلك ولا زال يبحث عن عمل وكما
تعلمون من لا يملك شهادة أو خبرة لا يمكنه ايجاد
عمل في هذه الأيام ، لكنه في نهاية الأمر وجد عملا
في مكتب لأحد رجال الأعمال يدعى [أبو سعد] ،
حيث يقوم بتنظيف المكتب وترتيب البريد له وارساله
إلى التجار وغيرهم ، كان عملا سهلا وبأجر جيد ،
وكل اهتمام ذلك الرجل أن يكون أمينا نشيطا ، ووجد
هذا في ساري حيث أن ساري أراضاه بأمر كثيرة
منها أنه نشيط ومثابر وأنه نظيف ويحب الترتيب ..

ركب ساري مع أبو سعد في سيارته الفارهة والكبيرة
، وكان أبو سعد من الرجال الكرماء واللففاء ،
فتحدث إلى ساري وسأله :

حدّثني عن نفسك يا ساري بالمختصر وما هو هدفك
في الحياة ..

ابتسم ساري وقال في نفسه بداية جيدة ، ثم نظر إلى
أبو سعد وقال له :

أتعلم يا سيدي أنني لم أتوقع أن تسألني عن طموح ،
ظننت أن الناس لا تفكر بطموحات ولا يهتمها إلا
جمع الملذات ..

أنا يا سيدي رجل لا يهمله المال إنما أبحث عن نفسي
فإن وجدتتها هنا ومعك سابقى وإن لم أجدها فسأرحل
باحثا عن نفسي .

أبو سعد : حسنا يا بني ، إن أثبت لي همّك العالية
وصدقك سأساعدك وستكون كالأخ بالنسبة لي ،
وستجني الكثير من المال لتحقيق غاياتك وطموحاتك .

بعد أن احترق بيته وكان لا يعلم بهذا انتشرت الكثير
من الشائعات في قريته ، اتهموه بالفاحشة واتهموه
بالجنون والكذب ، حتى صار من يمر بجانب بيته
يبيصق على قبره ويقول : تستاهل الحرق يا ..

لا أعلم لماذا كرهه الناس لكن يبدو أن بيت عمّه قد أشاعوا الكثير خاصة بعد أن هدم الناس بيته ولم يكن هناك نصيب لعمّه في البيت ، فأى طمع وأي جشع ، لكن عمه كان يقول لزوجته : رأيت ذلك ، لقد حرمني من بيته حتى بعد موته ، ذلك الحقير ألم يجد مكانا آخر ليموت فيه ، وهؤلاء الناس كان بإمكانهم أن يحملوا جثته المتعفنة ويضعوها بعيدا عن البيت ، كنت سأعيد ترميم البيت وبيعه والاستفادة منه ، لكن للأسف ، لقد ضاع كل شيء ..

أما ساري فلا زال يعمل عند أبي سعد ويجتهد ، يستيقظ صباحا ولا يعود إلى بيته حتى يظلم الليل ويسكن الناس إلى بعضهم في البيوت ، حتى سأله أبو سعد فقال : لماذا يا بني لا تعطي لنفسك بعض الراحة في بيتك ، فليس من الضروري أن تبقى في المكتب وقت الظهر ، أنا أقول هذا لأجلك يا بني لابد أن ترتاح ..

ساري : يا سيدي ولماذا أذهب إلى البيت فأنا وحيد
ومكوثي إن كان في بيتي أم في المكتب على حدّ
سواء ، ثم إنني يا سيدي أردت أن أستفيد من وقتي
في ترتيب مصنّفاتك القديمة فهناك في مخزن المكتب
الكثير من الغبار والأوراق ، واعلم أيّ لن أضيع
ورقة واحدة وسأرتّبها لك جميعها ..

أبو سعد : بارك الله فيك يا بني ، لقد علمت أنك لست
بشخص عادي ، انتظر منك نجاحات ونجاحات ، الله
يوفقك ويرضى عليك ..

ساري : هذا أقلّ من واجبي يا سيدي ، ثم إنك
تستحق كل خير ، فأنت من أكسبني ثقة بنفسني
وأعانني بعد الاغتراب ..

مضت الأيام ولا زال ساري يجتهد ويفكر في كيفية
رجوعه إلى وطنه بالنجاحات الباهرة ليكسر رأس
من استهزئ وسخر منه ، ليثبت لهم أنه ليس بمجنون
ولا أحمق ، ليريهم أنه صاحب حق وطموح ..

فتح ساري أحد دفاتره وقد كتب فيها بعض الخواطر
ليتسلى في ذلك المكتب أثناء راحته وكان من بين
الخواطر هذه الكلمات :

[هكذا أحبك]

بين الوهم والحقيقة وبين الطبيعة والخيال وبين الأمل
والحلم صدقتُ في حبي ، أيُّ جنون هذا أن أعشق
خيالا أو روحا لم تخلق ، لقد أنجبتنا الدنيا فرمتنا بين
أودية الهموم نصارع مشاكلها ونبحث عن الغنى بين
جبال الفقر ، سأمضي وأثبت وجودي وأحقق الوعد
الذي وعدتك إياه ، سأرسم ابتسامة على خديك حتى
أرى ابتسامات كثيرة فابتسامة فمك وابتسامة خدك
وابتسامة عينيك عندما أرى فيهم الحب ، وابتسامة
أذني عندما أستمع إلى حنان صوتك ، وابتسامة
روحي عندما تشمّ عبقا يخرج من كلماتك ، لست
أعني الشهوة ولست أبالي بها إنما يعنيني وجودك كنت
أبحث عنه طويلا .

ليتني أرى حبًا صادقًا قبل أن أموت ليتني أراه اليوم
قبل الغد ، تلوّث سمعة الحب بين يدي أصحاب
الشهوات فصرنا إذا ما ذكرنا الحب امتزجت أفكارنا
بشهوات النفس وردائلها .

ولا زال ساري يقرأ وكأنها رواية طويلة لا يتوقف
نبح الكلمات فيها والهمسات ، حتى تعب لسانه ولم
يتوقف لجمال ما كتب وواقعية الحب لديه الممزوجة
برغبة الإخلاص والصدق وكلّما تذكر من أحبها قلبه
وفقدتها ازداد تدفق ينبوع مشاعره وأحاسيسه ، إلا أنه
ينبوع ساخن يحمل الدفيء لمن اغتسلوا به وجربّوه ،
أتظنون أن الحياة فقط أن نعمل ونأكل ونشرب ،
أتظنوا أنها مظاهر وكذب ونفاق ، الحياة إن لم تحمل
الحب فلا خير فيها ، انظروا إلى ساري لو أنهم
أعانوه ووقفوا بجانبه لكان هناك الخير الكثير لهم وله
، ما ضرّهم لو اجتمع أهالي القرية وصنعوا صندوقًا
ليساعدوا به الفقراء ليكملوا دراستهم على حساب
الجميع ولن ينسى الخير من كان كريما وسيعود

الفقير بالنفع لمن ساعده ، لكن الناس لا يهتمهم إلا أنفسهم ولن يساعدوا أحدا ما دام الحسد يتغذى بدمائهم ويأكل من لحومهم ، كيف يريدون لشخص أن ينجح على حسابهم ، وإن كانت بضع دراهم يضعونها في الصندوق لن تكسر من ميزانية أحدهم لكن الغيرة والحسد قيّدت أيديهم عن فعل الخير .

استمر ساري بالقراءة في وقت فراغه أما عندما يكون في عمله فينشغل بالترتيب وإدارة العمل ففرح أبو سعد به كثيرا وزاد من راتبه وقد كان يوفّر من المال الكثير فهو لا ينفق راتبه على ملذّات أو شهوات وكان قد خصص بعضا من ماله ليشتري الكتب والدفاتر والأقلام ، وأما بقية المال فحافظ عليه وهو يقول : لعل له وقتا ليصرف وينفق .

واشترى لنفسه حاسوبا واشترك بخدمة الانترنت ونظّم وقته ، وتطورت قدرات ساري في مجال الانترنت وصنع موقعا للإعلانات مقابل اشتراك شهري وكان قد أخبر التجار عن هذا الموقع وقد

أعجبهم هذا الأمر كثيرا فصار معظم التجار يرأسله ليضع اعلانات لتجارته ، وجنى الكثير من المال خلال أشهر معدودة ، واستمر على هذا النحو لكنه رغم هذا النجاح لم يكن سعيدا مطلقا لأن غايته كانت أسمى وأعظم ، كان يفكر بالحصول على شهادة جامعية لكن بلا جدوى ، كيف سيحصل عليها وهو الرجل المشغول بين عمله وبين راحة جسده ثم إن الجامعات لا تقبل بالدراسة إلى في قاعاتها وذلك يحتاج لفراغ كبير وإذا تفرغ ساري سيتردد من عمله حتما ..

أجل ساري فكرة الجامعة رغم ألمه الشديد وحلمه أن يكون في جامعة ، وكلما رأى طالبا يكتب أو يقول : أكره الدراسة ، أكره الجامعة ، كان ساري يقول في نفسه عندما ينظر إلى أمثال هؤلاء : أين أحلامكم يا أثرياء يامن لهم أمهات وآباء أموالكم حاضرة وأوقاتكم فارغة فلماذا لا تحبون الجامعات ، غيركم يتمنى أن يدرس مرة واحدة في الأسبوع في جامعة

وأخر يتمنى أن يدخلها لكن فقرهم منعهم من ذلك مع تمنّيهم وصدق نواياهم ، وأنتم تعبتون بالأموال ولا تشعرون بغيركم ، لهذا كانت الجامعات لمن لا يستحقها لكن حكمة الله كبيرة عظيمة ونحن به مؤمنون ..

خلال الأشهر الأولى من وصوله إلى هذه البلاد كانت رنوة قد عادت ودار بينهما حديث وقد وجد ساري رسالة من رنوة بعد أن عادت إلى جامعتها فور انتهاء اجازتها الصيفية لكن ساري قبيل رحيلها تحدث إليها وقد قالت رنوة :

سأسافر إلى بلدي يا ساري سأعود قريباً ، سأشتاق إليك ..

ساري : تصلين بالسلامة إن شاء الله ، من غير ضررٍ ولا بأس .

رنوة : سأتكلم لوالدي من جديد عنك ..

ساري : تكلم لي لهم لكن لو كانت إجابتهم بالنفي فلن أتكلم معك بعدها ، وإن كانوا موافقين سأخطبك في نفس الوقت وأنتظر حتى تنتهي من دراستك ..

رنوة : حسنا ، هذا جيد جدا ..

وبعد عودتها من البلاد سألها عما حصل :

رنوة : لقد وافقت أمي وبقي أبي ، أظنه سيوافق لأنه يحبني وقلبه طيب حنون ..

ساري : أخبريني عندما يوافق ، لأنني لا أحب أن أنتظر طويلا ..

رنوة : حسنا ، سأخبرك قريبا إن شاء الله ..

وفي أحد الأيام ، تذكر ساري قريته ، أراد بشدة أن يعرف أخبار أهلها ، كان لديه حساب أحد أصدقاءه في الفيس بوك ، إنه حساب هيثم وقد كان يقطن قريبا من بيته ، لكن ساري أراد أن يعرف أخبار قريته بدون أن يعرفه بنفسه ، لقد قرّر أن يدخل باسم

حساب مجهول ، وكانت الغاية أن يخبره هيثم بالأخبار بدون أن يشك بأمره ، سجّل ساري بحساب فتاة وصار يتحدث يوماً بعد يوم إلى هيثم ، كان يقول لهيثم أنه فتاة من القرية وأخذت بريده لكنها لن تخبره من هي ، وكانت غاية ساري أنه عندما يسأل عن أي شيء في القرية لا يشك بأمره .

وتوالت الحكايات والأخبار حتى سأله في يوم على لسان الفتاة : ماذا حل بالمجنون ساري ..؟

هيثم : (يضحك) لقد احترق في بيته ومات .

الفتاة : كيف !! كيف احترق ..؟

هيثم : لقد احترق بيته في يوم ربما كان هو من أحرق بيته وأحرق نفسه .

الفتاة : وماذا حصل بعد ذلك ؟

هيثم : لقد هدم أهل القرية بيته فوق جثته وصار بيته قبره .

الفتاة : وماهي أخبار القرية ؟

هيثم : لماذا تسألين عن أخبارها ألسنت هنا في القرية ؟

الفتاة : لقد سافرت مع والدي إلى ، وأنا لا أعلم ما حدث في قريتنا ..

هيثم : ماذا تريدين أن تعرفي أيضا ..

الفتاة : أتعرف فلانة بنت فلان ؟ (وذكرت اسمها) ؟

هيثم : أظني أعرف عائلتها ، ماذا تريدين أن تعرفي عنها ..

الفتاة : إنها صديقتي وأريد أن أعرف أخبارها فمنذ سنوات لا أعرف عنها شيئا .

هيثم : حسنا سأسأل عن أخبارها وأخبرك بها ..

الفتاة : شكرا جزيلا و لكن لدي طلب ، أن لا تخبر أحدا عني ..

هيثم : حسنا ، لا تقلقي لن أخبر أحدا عنكِ ..

انتهت في هذه اللحظة المحادثة وذهب ساري لينام وكل ما يهمه أن تكون (غالية) بخير ، **أتعلمون من هي غالية** ؟ إنها الفتاة التي سأل هيثم عنها إنها تلك الفتاة التي كانت أول حب له لكنها تزوجت ، تلك الفتاة التي لم يذهب طعم قهوتها من فمه .

نام ساري وهو يحلم أن يسمع خبرا عنها فتضطرب أذنه بسماع أخبارها ..

وعلى الجانب الآخر ، مات زوج غالية بعد زواج دام ثلاث سنوات لم تنجب منه ولدا ولا بنتا ، هزل جسمها من التفكير ومن شدة قسوة زوجها ، ومن المصادفة أنه توفي في ذات الليلة التي رحل ساري فيها ، وعندما كانت في أيام العزاء تستقبل النساء للتعزية وتبكي لما حلّ بها فهي لم تعش لحظة واحدة من الرخاء أو الحب مع زوجها لكنها كانت مخلصا ولم تعمل إلا بطاعته أما الحب فليست مجبرة على

حبه لقد ظلّمت من قبل أهلها عندما زوّجوها من لا تحبه فكانت تبكي أيام العزاء بكاء مريرا ظلّ من رآها أنها تبكي على زوجها الراحل ولم يعلم أحد سوى ربّها الذي يعلم ما تكنّه الصدور أن بكاءها كان لأجل نصيبها وقدرها ..

وبينما كانت تبكي إذ سمعت باحترق بيت ساري وموته حرقا ، لقد أغمي عليها وظنّنت أن الدنيا تسير بعكس الاتجاه ، وأن السراب زال ولم يعد حتى خيالا ، من شدة بؤس حظّها ونصيبها رحل السراب الذي ربما يحيي بعض الأمل في قلب من يراه ، حين سمعت خبر موت ساري ، ماتت كل أزهار الحب وانقطعت كل حبال المودة وأظلمت الدينا حتى أغمي عليها ولم تستفق إلا بعد انتهاء العزاء ، كانت صدمة موجعة ، ومنذ ذلك اليوم وهي تعيش حياة البؤساء وتبكي بكاء الثكالى ..

وصلت لساري أخبار غالية فحزن كثيرا وقال في نفسه : كل ذلك بسببك يا ساري أنت من تخاذلت عنها أنت من نسيتها أنت سبب حزنها وتعاستها ، أحببتك ومرضت بحبك وأنت لازلت تبتعد عنها لقد فقدت الأمل مطلقا هذه المرة فعندما سمعت بوفاته لم يعد لديها أي اهتمام بأحد ماذا ستفعل ؟

فصل

وعد كاذب

في ذات الليلة والحزن قد أطبق يديه على قلب ساري تحدثت إليه رنوة وشعرت بأنه يحمل همًا كبيرا ، أقسمت عليه أن يخبرها بحاله لكنه ظل صامتا لا ينطق بكلمة ، وبقيت طوال الليل تسأله وترجوا منه أن يخبرها بما حدث ، لكنه لم يتكلم وكيف سيخبرها بحبيبتة الأولى والتي أحبها من كل قلبه ، وهل سترضى أن يحزن ساري عليها ؟

فقال ساري : لا أستطيع أن أخبرك بشيء لأنك
ستغضبين كثيرا والأمر لا يعينك فانسيه ..

رنوة : ستخبرني به حتى لو كان الأمر سيقْتلني ..

ساري : حسنا سأخبرك ، وبعد أن حكى لها قصته
مع غالية ظلّت رنوة صامتة ، ثم ساد الصمت المكان
لساعة كاملة ، بعدها تحدثت رنوة وقالت : لن أدعها
تأخذك مني ولو على جثتي ..

ساري : لكن يا رنوة أنتِ ستحرميني منها ولا أظن
أن زوجي منك سيسهل .

رنوة : بل سيكون سهلا وأهلي سيوافقون .. أعدك
بهذا ..

ساري :وماذا لو تغيّرت الأمور واجبروك على
الزواج من غيري ؟

رنوة : لن تتغير الأمور فأنا لك وأنت لي ..

فقال حينها ساري : أتعلمين يا رنوة هكذا ستحرميني منها ولولا أنني اتفقت معك ووعدتك لما وافقت مطلقا على الاستمرار معك ليس كرها فأنا أحبك بالفعل لكن لهذه الفتاة دينا علي وقد ضحّت بالكثير لأجلي وصبرت على مبتلاها .. أتعلمين لو تزوجت أنتِ وخذلتيني سيكون ظلما كبيرا منك ..

رنوة : لن أظلمك لأنني أحبك ولن أرضى بغيرك زوجالي ..

مضت الأيام ولا زالت غالية شبه فاقدة للوعي ...

لم يظن ساري أن غالية كانت تحبه إلى هذه الدرجة ، ولم يتوقع أن يموت زوجها فتبقى مريضة ، لكنه خاف كثيرا عليها أن تعلم أن ساري على قيد الحياة وقد تزوج من فتاة أخرى مما جعله يبعد فكرة رجوعه إلى القرية أبدا ..

واستمرت نجاحات ساري لكنها كانت محدودة جدا ولم تكن كبيرة وقد وقرّ بعض المال خلال هذه

الأشهر القليلة وكانت له خطة لخمس سنوات قادمة
وخلال هذه السنوات قرّر أن يشتري أرضا في
القرية المجاورة لقريته ويبني عليها بيتا لكن أراد هذا
بالسر ..

وطوال هذه الفترة كان يفكّر بطريقة ما ، كان يبحث
في ذاكرته عن رجل يمكنه أن يساعده من أهل القرية
وأن يحفظ سره .

في الحقيقة لم يكن لديه هاتف أحد منهم ولم يكن يثق
بأحد ، لكنه تذكّر صاحب البستان الذي عمل في
صغره عنده .. كان رجلا كبيرا بالسن وقال في نفسه
لابد أن أتذكر رقم هاتفه ...

كانت رنوة خلال هذه الأيام تحاول أن تنسيه حب
غالية ، لكن ساري تظاهر أنه قد نسيها ليس خوفا
من رنوة إنما أراد بذلك أن لا تشعر بالغيرة فتوسوس
لها نفسها ، ولم يكن من أولئك الذين يحبون أن
يضيّقوا صدور العالمين بأفعالهم ..

أما ساري فكل ما يريده من الحياة أن يثبت وجوده فيها بنجاحات ويشق طريق الامتياز فيها ، لم يفكر بالمال مطلقا ولم يفكر بالدنيا أبدا بل كان جُلُّ همّه أن يحقق طموحاته ثم يموت مرتاح البال ، وكان يشعر بالضيق كلما تذكر غالية كانت الفتاة التي حزن عليها كثيرا وأراد أن يدخل السرور إلى قلبها ولو يوما واحدا على الأقل ، لكن رنوة منعتة من هذا لأنها كانت تحبه فخافت أن يتحدث إليها ويتزوجها وينسى حبه لها.

وطوال تلك الفترة كانت رنوة تتكلم مع ساري بلهجة الضمير المؤنب ، في كل مرة تقول له كلاما فيه من القسوة ما فيه ، كانت تقول له : من المؤسف أن تبقى على حالك ، اخرج وابحث عن عمل آخر ، ابحث عن جامعة تدرس فيها ..

أما ساري فقد كان يجيب عليها بجواب ثابت : ليس معي شهادات حتى أبحث عن عمل وأنا أحمد ربي أنني حصلت على عمل عند هذا التاجر ولولا فضل

الله لعشت مشرّدا مسكينا .. أما الجامعات فهي تحتاج إلى المال الكثير إن كنتَ تظنين أن لدي مالا مثلكِ فأنتِ مخطئة ، وإن كنتِ تبحثين عن الغنى والثراء فابحثي عن رجل آخر تحبينه فأنا لن أرضيك أبدا ..

رنوة : قلتُ لك مسبقا أنني لا أهتم للمال وأنّي سأعيش معك في خيمة لكن أريد أن أرضي أهلي حتى نتزوج بإذن الله ..

ساري : إن لم يقبلوا برجل همّه سعادة ابنتهم يسترها ويحفظ لها بسمتها فماذا سيرضون ؟ إن كان همهم الشهادة الجامعية فهناك الكثير ليبحثوا لابنتهم ..

استاء ساري من كلماتها كثيرا وكأنها لا تحاول إلا ارضاء نفسها لكنه لم يتفوه بأكثر من ذلك ..

شعر بأنانية هذه الفتاة فلو كانت تحب ساري فوجدت راحته في حب غيرها لطلبت منه أن يتزوج من يحب ليس زهدا بحبه لكن المحب يرضى براحة محبوبه وإن كانت روحه ميتة باعها ولو كان

المشتري سيخسر ثمن القبر بعد شراءه لتلك الروح لكنه عندما أخبر رنوة بمحبوبته التي بكى لأجلها عرف أن رنوة ليست مخلصه في الحب لكنه صبر لأجل أخلاقه فقد وعدّها أن يصبر لأجلها رغم رؤيته لمحبوته غالية بلا زوج ولا ولد يئس من الحياة كما يئس المريض من شفاء مرضه العظيم ..

كان ساري أسيرا لحديث النفس وقد وهن كثيرا بسبب هذا الحديث كاد يبيع قلبه لأجل أن يشتري عينا أخرى يبكي بها على غالية ، وأما عن عمله فلم يقصّر فيه وكل وساوس الدنيا تأتيه عند المساء ، وكأنها حمى كحّمى المتنبي حيث كانت لا تزوره إلا في ظلام الليل فكتب فيها شعرا : وزائرتي كان بها حياء & فليس تزور إلا في الظلام ..

في الجهة الأخرى كان الجميع في قرينته يظنون أن ساري مات وأنه قد شبع من الموت حتى اكتفى ، كانت غالية هي الوحيدة من يتذكر ساري في كل لحظة ، وليتها تعلم أنه لم يميت ، لكن من سيخبرها

بهذا إن كان ساري قد أسرته رنوة ولم تسمح له
بالحديث أو الرجوع ..

بل كان كلما قال لرنوة سأسافر إلى قرיתי نهرته
وصاحت به لن تذهب ، انتظر حتى تحقق أهدافك .

مضت الأيام ولازال حب رنوة لساري يزداد يوما
بعد يوم كما يظن ساري ..

وفي أحد الأيام وبينما كانت رنوة في جامعتها جاء
إليها شخص فسألها عن الجامعة .. إذا أنه أنهى
رسالة الدكتوراه وأراد أن يعرف عن هذه الجامعة
من طلابها .. ربما يجد عملا فيها يناسبه .. تحدثت
إليه رنوة بكل هدوء وكانت لهجته العربية قريبة من
لهجتها ، وبعد أن انتهى من سؤاله أجابته ثم بادرت
قائلة : من أين أنت ؟

أجابها أنا من :

شهقت شهقة طويلة ثم ضحكت وقالت أنا وأنت من نفس البلد ، (ونظرا لطبيعة أهلها المنفتحة أخذت رقم هاتفه وأعطته رقم هاتفها ..) ثم قالت له إن احتجت لشيء فأنا هنا وأخبرها هو بذلك أيضا ..

ودون علم ساري بهذا الأمر كانت تتحدث إليه بشكل يومي بل خرجت معه ودعته إلى تناول عشاء أكثر من مرة ، في حين أن ساري عندما يسألها لماذا لم تدخلي الليلة الماضية ، تحببه قائلة : كنت أدرس لامتحان عند صديقتي .. كانت تدعي الاخلاص والحب والتفاني لكنها كانت كاذبة ، و نظرا لواقعنا الغامض لا نعلم من الكاذب ومن الصادق ولا ننتفع إلا بالأفعال ، وساري كما علمنا ليس بمغفل حتى تمر عليه الأعيبها لكنه لكثرة همومه وتفكيره الشديد لتحقيق طموحاته انشغل تماما عن كل هذا ، ولم يكن كاذبا معها في يوم أبدا وكانت علامة صدقه أن أخبرها عن غالية وعن حبه وأخبرها بجميع تفاصيل تلك القصة .

صحيح أننا لا نرى خيانة الخائن حين يخون لكن الله يرى ، وصحيح أننا لا يمكن أن نعاقب قلبا خائنا لكن الله سيحاسبه .

ومن غدر **فسيأتي من يغدر** به ومن خان لابد أن يرى يوما من يخونه والعقوبة من جنس العمل ، لم يعهد ساري خيانة أحد ولم يتذوق طعم الخيانة في حياته لأنه لم يكن اجتماعيا وعادة الخيانة تكثر عند من يخالط الكثير من الناس ونحن لا نعلم أسرارهم لهذا لا نعلم بمدى قبيح فعل أحدهم إن فعل ..

كانت تصله أخبار غالية في كل أسبوع وكلما وصلتته أخبار عنها ازداد مرضه وتعبه وكما قيل أن **من فاته الوصال نعشه الخيال** وإن كان الوصال قد انعدم فهناك ذكر في النفس لا يمنع أحد منه وكم عاشق خرج من مجلسه حين تذكر محبوبه لعله يحدث نفسه في الخلوة ويتذكر من عطش قلبه لأجله وكم من عيون أظهرت النعاس ليس حبا في

النوم أو تعباً لكنها أرادت أن تجد عذراً في اغلاقه
جفن كي تتخيل وتحلم بمن أحببت ، وليت عيون
ساري قد رأت غالبية حتى تأخذ صورة لها تحتفظ بها
كي لا تزول البتة عن ذكرها ، ومن غاب عن إلفه
تعلل بطيفه فينادي لقياك (متى) فيجيب الطيف
(حتى) فتكثر المماثلة ويزداد التسوية .

ومصيبة من أحب أنه لا يهنئ برؤية محبوبه في
اليقظة ولا يستطيع النوم حتى يراه حلماً فطمعه في
ذلك كطمع المحروم مما حرموه ..

وأما هوى المحبوب فيقل بمقالي الهوى فيغلي الدم
من النوى ويحرم بعدها المحب من رؤية طيف
محبوبه حتى ، ويلزمه السهر والارهاق . ولا زال
قلب ساري يطوف هناك عند من أحبّ ومتى سيراه
وينعم بوصاله ؟ وهناك شيطانة لا يعلم أنها سبب
حرمانه، ولو علم بخيانتها لما بقي ينتظر وينظر إلى
موت غالبية ببطئ شديد .

لقد عانى الكثير وتمنى أن تعود إليه رنوة تلك الروح العابثة التي ادّعت أنها جنية ، تمنى أن تعود إليه ولو مرة واحدة ليرسل معها رسالة حب لغالية ، يستسمح من خلالها بعده عنها ويعتذر اعتذار من أجرم فحان قصاصه وقطع رقبتة واعتذار من كان في آخر لحظة في حياته .

هيهات أن يحصل هذا هيهات .

في هذه الأثناء كانت رنوة (الخائنة) قد تطورت علاقتها كثيرا بذلك الرجل بل تعرفت إليه وإلى أهله دون علم ساري وقد أحس ساري بأن رنوة تغيّرت فلم تعد تتحدث عن الحب كالسابق بل صارت تحادثه قليلا ، ولم يعلم ساري أن قلبها قد تحوّل إلى شخص آخر واستمرت بمحادثته دون علم ساري ، وإذا ما فتح موضوع الزواج معها وطلب منها أن يطلبها من أبيها ماطلت في الحديث وقالت : أن الوقت مبكّر وأنها تريد أن تكمل دراستها وبقيت على هذه الحال حتى مضت سنوات وكانت التغيّرات كالتالي :

أما غالبية فقد تزوّجت وعاشت حياتها سعيدة بعد أن
يئست من ساري وقد أيقنت أنه قد مات وانتهى ، لقد
كانت تأمل بالزواج منه لكن ساري قد تأخر للمرة
الثانية ولم تعلم هي أيضا بانه لا يزال على قيد الحياة
أما ساري فقد تطوّرت أموره كثيرا فقد أنجز الكثير
لذلك التاجر وأكرمه كثيرا وصار معروفا بين
أصدقاء التاجر وساعده كثيرا أيضا ..

وفي أحد الأيام أخذ ساري إجازة لأسبوع كامل أراد
خلال هذا الأسبوع أن يرتاح قليلا ويروّح عن نفسه
، كانت رنوة في آخر سنة في جامعتها ، بشرته أنها
ستتخرج عما قريب ، فرح ساري كثيرا وأراد أن
يحضّر نفسه في هذا الأسبوع للحديث إلى والدها ،
لقد مل ساري من الانتظار والتأجيل ' أخبرها مرارا
أنه يريد أن يتحدث إلى والدها لكنها رفضت فسألها
أكثر من مرة هل وافقت عائلتك على طلبي أم أنك
تخفين شيئا ما ؟ لقد كان مخلصا وأراد أن يحسم

الأمر إما أن يوافقوا أو يرفضوا ليعرف كيف يمضي بقية حياته .

كان جوابها طوال الوقت ثابتا : لقد وافق أهلي لكنهم يريدون رؤيتك والحديث معك ، ولكن ليس الآن حتى أخرج وأسافر إلى بلدي وأكون هناك ثم أخبرك أن تأتي في الوقت المناسب .

فصل

الحقيقة

لقد قرر ساري أن يتزوج من رنوة وأن يتقدم لخطبتها قبيل وصولها إلى بيت أهلها ، وكان لديه بعض الشك من صدق حديثها إضافة أنه سمع بزواج غالية وكان بإمكانه أن يتزوجها لكن رنوة رفضت بشدة وأخبرته أنها لن تتخلى عنه مطلقا وأنها ستعمل على اقناع والديها .

وبعد الظهيرة بينما كانت رنوة في جامعتها قرر أن يرسل لها رسالة إلى هاتفها قائلا :

لابد أن نحسم الأمر اليوم يجب أن تعطيني رقم هاتف والدك لأحدد موعدا للقائه ..

في منتصف الليل كلمته رنوة بأسلوب لم يعهده من قبل ، كانت غاضبة جدا وأخبرته أنها لن تستطيع الزواج منه ، لقد صدمته كثيرا بهذا الخبر ، وقال لها : وماذا عن الوعد الذي قطعته .. أرجوك لا تمزحي معي هكذا .. فأجابته بكل قسوة وقالت : وهل تملك ثمن العلكة التي أمضغها ؟

ساري : ماذا تقصدين يا رنوة ؟

رنوة : ابحت عن فتاة غيري لقد كنت أحبك لكني الآن أحب رجلا آخر ، أحب رجلا في نفس التخصص الذي أدرسه بل لديه شهادة دكتوراه ، لقد ساعدني كثيرا وطلب يدي وقد وافق والدي بشرط أن أنسأك ، لا أريد أن أراك بعد اليوم ..

ساري : وهل كانت سنوات الانتظار كلها كذب وغدر ؟

إذا كنتِ لم تفكرى بالزواج بي فلماذا كنت تتحدثين إلي .؟ لماذا حرمتي قلبي من غالية وأنت تعلمين أن زوجها قد مات وكنت قد أستطيع الزواج منها ..

رنوة : اذهب الآن وتزوجها ، وإذا أردت المال سأعطيك حتى تتزوجها .

ساري : تبّاء، لم يعد بمقدوري استرجاعها فلقد تزوجت يا رنوة ، يا غادرة ، يا خائنة ..

لماذا كل هذا ، لماذا ؟ أقسم عليك أن تقولي الصدق هل أديتك في يوم من الأيام ، هل طلبت مني مساعده ولم أساعدك ؟

رنوة : لم تؤذيني لكن أريدك أن تنساني ، و أريدك أن تفهم أنني لا أتزوج بـرجل لا يملك مالا ولا شهادة ساري : هذا كل ما لديك ؟

رنوة : هذا كل ما لديّ وأرجوا أن لا تعود وتتحدث معي ..

ساري : حاضر ، أشكرك كثيرا ، لكن تذكرني أن
تنظري في السماء وتذكري من رفعها وجعل من
تحتها مهادا ..

(رمى ساري بجسده المتعب إلى سريريه) وقال في
نفسه :

" أحببتُ شيطانةً فسرقت مني الحب "

انتهت قصة رنوة وكذلك انتهت قصة غالية ، كان
باستطاعته أن يدخل السعادة إلى قلب غالية المخلصة
الصادقة ، لكن حتى الآن لم يفهم ساري لماذا فعلت
رنوة كل هذا ؟

وبعد تفكير طويل ، تذكر أنها استغلته خلال فترة
دراستها لتسلي نفسها وخاصة أن ساري كان من
أصحاب الكلمات المحفزة التي تثير النشاط ، فكانت
كلما حزنت أو أصابها كسل أو احباط تحدثت مع

ساري وبكلماته الرائعة انجلت الغمامة ورجعت إلى
دراستها بهمة ونشاط لكنها بعد انتهت من جامعتها
وصارت في آخر السنة لم تعد بحاجة لهذه الجرعات
من النشاط فاستغنت عن ساري الحنون الطيب ، نعم
لقد كان طيبًا حنونًا ولولا هذا لما انتظر سنوات لأجل
رنوة وترك أحب الناس إليه لأجل أن لا يخدعها أو
يغشها ، لكن هيهات أن تعود الحياة إلى الوراء
وهيهات أن يستطيع تعويض تلك اللحظات ..

في هذه الاثناء عاش ساري حزينا ولم يحزن إلا على
فوات الكثير من الوقت مع هذه الفتاة الخائنة ، لقد
أمضى اجازته بنكد واكتئاب ...

أراد أن ينتقم منها أكثر من مرة ، لكنه فُكر كثيرا
بكلماتها القاسية ، أنه رجل فاشل لا يستطيع أن يحقق
رغباتها ، صحيح أنه لم يحبها لكنه كان صادقًا في
وعده عندما قطعه لها ، لقد انتظر انتهاءها من
الجامعة وعدّ أيام دراستها يوما بعد يوم وسنة تتلوها
سنة حتى أتى ذلك اليوم فعرف حقيقتها ..

عاد ساري إلى عمله لكن علامات الكآبة قد ظهرت
في وجهه كان يوبّخ نفسه دائما ويقول :

لقد كنت مغفّلا أحمقا ولولا حمقي لما خدعتني فتاة
مثلها ولما تركت امرأة كادت تموت لأجلي ،
واحسرتي لكني أستحق أكثر من هذا ، عدّبتَ غالية
فتعدّبت برنوة ، أنا لا ألوم أحدا فكل ما حدث بسبب
جُرمي وتقصيري ، وعندما نتلاعب بمشاعر الناس
سيأتي من يتلاعب بمشاعرنا ، وعندما لا نشعر بمن
أحبنا سيأتي يوم نحاول فيه أن نوصل مشاعرنا
للناس فلا نجد من يفهمها أو من يهتم بها ..

حاول ساري أن ينسى رنوة فجعل يزيل كل شيء
يذكره بها وجلس في المكتب يفكّر بأهدافه وكان
يحادثها (أي نفسه) ويقول :

لن تتوقف الحياة عند امرأة وأما غالية فقد تزوجت
ووصلتني أخبار أنها بخير وسعادة لماذا أقلق ولماذا
أحزن ، لو كانت رنوة هي سعادتني لما أخذها الله

وأبعدها ، لماذا تحزن على فتاة تحب المال وتعشق
الثراء لو تزوّجتها يا ساري لجعلتك سخرية لها
ولأهلها ، الحمد لله الذي أبعدها عني ورزقني عقلا
أميّز به بين الحسن والسيء ، هيا يا ساري جدّد
طموحاتك ..

كان ساري قبل رحيل رنوة يفكّر بالجامعات
والدراسة فيها ، أما الآن فقد تغيّرت طموحاته ، هو
الآن لا يفكّر بجامعة ولا بدراسة بل كانت طموحاته
أن يحقق نجاحات باهرة في كل شيء يقوم به حتى
في مجال عمله ، لأن النجاح لا يمكن أن يكون
محصورا بالمدارس والجامعات فكم من عالم
ومناضل ومحارب وفقهه وكاتب وأديب لم يدرسوا
في الجامعات لكن تميّزهم واجتهادهم رفع من قدرهم
حتى صاروا أساتذة يدرّسون علومهم في الجامعات
من غير شهادة ، فتحقيق الأهداف لا يعرف طريقة
واحدة فهناك طرق عديدة لتثبيت ذاتك وترفع من
قدرك وتسجّل اسمك في سجلات المميّزين .

أبو سعد : كيف كانت اجازتك يا ساري .؟

ساري : جيّدة ، الحمد لله لقد حاولت أن أريح بدني وأجدّد أفكارِي فكما تعلم لا بد لنا من جلسة استرخاء مع النفس لنعيد شحن أنفسنا بطاقة من نشاط وهمة.

أبو سعد : لقد افتقدتك في المكتب وعندما كنت لوحدي فيه رأيت كل ما صنعه فيه من تهذيب وترتيب وقرّرت أن أغيّر من طريقة تعاملي معك .

ساري : كيف ذلك ؟ أنا طوع أمرك .

أبو سعد : قررت أن أعطيك نسبة من الأرباح اضافة إلى راتبك ، فأمانتك وصدقك واخلاصك يستحق أن تعامل بطريقة أجود من السابق ، وسأعطيك نسبة جيدة من الأرباح بإذن الله ، فشد من عزمك وابدأ عملك ..

ساري : بارك الله فيك وأدخل السرور إلى قلبك كما أدخلته إلى قلبي ..

لقد شعر ساري بالسعادة فهذا الخبر انتظره منذ مدة طويلة وشعر أيضا أنه منذ أن تركته رنوة وبشائر الخير تأتيه ، وكأن الله يعوّضه عن كل دقيقة حزن كان بسببها وبسبب أهل قريته .

مضت أيام على هذه الوقائع واستمر ساري بقراءة الكتب وقد وُفق في عمله حتى جنى الكثير من المال ، وكانت خطته القادمة أن يشتري في قريته المنازل والأراضي بدون أن يعلم أحد بهذا ، أراد أن يدخل إلى قريته بعد أن يملك فيها الكثير ، لكنه بحث عن شخص يقوم له بهذا الأمر بدون أن يتكلم ، لم يجد إلا ذلك الرجل المسن الذي ذكرته لكم من قبل ، إنه أحد أصدقاء والده وهو الذي عمل عنده في مزرعته وبستانه وعامله كوالده، اتصل فيه وكانت المحادثة :

ساري :مرحبا يا عمي .

العم : أهلا وسهلا ، مرحبا يا بني ، تفضل ..

ساري : قبل أن أخبرك من أنا ، أريدك أن تقسم لي
أن لا تخبر أحدا عني ..

العم : تفضل يا بني فأنا أعيش برفقة زوجتي وليس
لدينا أحد لأخبره شيئا ، تفضل وتكلم .

ساري : أنا ابن صديقك العزيز (.....) هل
عرفتني ..

العم : س س س ساري ، انت لم تمت ؟

ساري : لا يا عم ، لقد سافرت وأغلقت باب بيتي
وفي اليوم التالي حرقوا بيتي فظنوا أنني قد مت ، هل
أنت بخير ، وكيف حال عمّتي ؟

العم : سبحان الله ، لقد ظن الجميع أنك ميّت لكني لم
أصدق هذا ، عمّتك بخير ، قل لي يا بني ما الذي
نكّرك بي وهل تريد مني شيئا لأخدمك به فأبوك من
أعز أصدقائي وأنت يا ولدي لقد عشت بين يدي أكثر
من ثماني سنوات تفضل يا ولدي ..

ساري : أنا بحثت كثيرا ولم أجد رجلا أتق به غيرك ، أود أن أشتري منازل وأراضي في قريتك وأود أن أرسل إليك بالمال فتشتري لي ما أريده بدون أن تخبر أحدا بهذا ، أريدك أن تشتري باسمك ثم تحوِّله إلى اسمي عندما أعود إلى القرية ..

العم : حسنا يا بني ، أنا بخدمتك ، لكن كيف سأحول كل شيء باسمك وأنت مسافر وبعيد ، ما رأيك بخطة أخرى ، أن تجمع أموالك وعندما تعود إلى القرية ستجلس في بيتي وتشير إلى المكان المطلوب لأشتريه لك وتكون حاضرا ويسجّل كل شيء باسمك ، وهكذا تضمن حقك ، فلا تعلم ربما أموت ويضيع حقك يا بني ..

ساري : بعد عمر طويل يا عمي ، اتفقنا وخطّتك كانت رائعة جدا ، لكن أرجوا أن تكتم أمري يا عمي لا أريد أن يعلم أحد أنني على قيد الحياة ، ربما كان من أحرق بيتي متعمدا ليقتلني ، لا أعلم حتى الآن ما سبب حرقه ..

وأعاد ساري خطته وقرر أن يشتري الأراضي وقرر أن يبني مستشفى كبير وضخم وكانت لهذه الفكرة غايات كثيرة ستعرفونها فيما بعد ، وبذل خلال هذه السنوات كل ما لديه ووقّر الكثير من المال ودخل في تجارات كبيرة وكان يضع أمواله في البنك يوما بيوم ، وعندما يسمع أن هناك مناقصة أو تجارة مثيرة دخل بقوة ولقد اكتسب خبرة من التجار خبرة جعلت منه رجلا ثريا وكانت الشهور تمر شهرا شهرا حتى بلغ الثلاثين من عمره ، لقد كانت لساري نظرة في الحياة ، كان يقول دائما أن الإنجازات تبدأ بعد الثلاثين لكنه حققها قبل ذلك ، هكذا قال الكثير من الفلاسفة والحكماء أن الرجل يبدأ بالإنتاج الحقيقي بعد الثلاثين وعندما بلغ الثلاثين ورأى هذه الأموال بين يديه أدرك أنه سبق الزمن وسبق أقرانه وحقق طموحات لم يحققوها هم من قبل ، ثم إن ساري قرر السفر إلى ذلك الرجل المسن وعندما وصل إليه ورحّب به كانت بداية خطته أن يشتري بيتا ليسكن فيه ، وطلب من الرجل المسن أن يأتيه

بشباب فقير يعينه على قضاء الأمور في القرية لأنه لا يريد الخروج إلى الناس ، ثم بدأ ساري ببناء مستشفى بعد أن طلب الموافقة من محافظ المدينة مستشفى خيرى ولقد كان ذلك المحافظ رجلا شهما وقد رأى في ساري رجلا صاحب خير وساعده في انتقاء المهندسين ، ثم إن ساري وصّى مسبقا شركات المعدات الطبية على توفير أحدث الأجهزة ، في تلك الأثناء ونتيجة لتراكم النفایات في القرية كثرت الأمراض وقد كانت سببا في هذه الفكرة التي دخلت قلب ساري ، كانت غايته أن يبني هذا المشفى ليساعد أهل القرية الذين ظلموه ويساعد القرى من حولها ، وكادت الأمراض تفتك بأجساد الناس ولا زالوا يجتهدون في بناء هذا المشفى وكان ساري يستعجلهم يوما بعد يوم حتى تم الانتهاء من بناءه .

لم تكن الأمور سهلة كما في السابق ، لكن المحافظ كان رجلا صاحب خير وساهم كثيرا في المساعده ، من خلال المادة والرجال ، ولقد كانت هذه المشاريع

تقام في المدن فقط وأما القرى والأرياف فهي محرومة في الغالب من هذه الخدمات ولهذا لم يكن هناك إلا مركزا صحيا صغيرا في كل قرية ، وعندما اكتمل بناء المستشفى وكان ضخما جاءت الأجهزة واكتمل تجهيز المشفى من كل أدواته وكانت على حساب ساري إذ أن تجارته في تلك البلاد لازالت تزيد من أمواله وأن هذا المشفى لم يحقّر من ميزانيته وكل ذلك بفضل الله ثم بفضل ذلك الرجل (ابو سعد) ..

في يوم غد سيحضر المحافظ وكبار الشخصيات من القرى والمدن المجاورة لافتتاح هذا المستشفى وقد عيّن المحافظ الكثير من الأطباء على حساب الدولة ليعملوا في هذا المشفى المكتمل وقد وضعوا اسم ساري على باب المشفى لكنهم وضعوا عليه قطعة قماش أحمر بطلب منه وطلب من المحافظ أن يعيّن أصدقاءه الذين كانوا معه في المدرسة فصار منهم

الطبيب والممرض والصيدلاني ، ولكنه طلب منه أن لا يخبرهم عنه ، كانت غايته أن يظهر أمامهم فجأة ويخرج من المستشفى ، لم تكن الغاية اظهار نفسه بل كانت لإظهار الحق ، تجمهر الناس أمام المشفى والأهاليج تملأ الدنيا والناس يرقصون طربا بافتتاح المشفى وجلس المحافظ وكبار الشخصيات على اليمين تحت خيمة بنيت لأجل الاحتفال ، وصار الناس يتطلعون لقطع ذلك الشريط وينظرون إلى اللوحة المغطاة ليعرفوا اسم من بنى هذا المشفى وأما ساري فقد جلس داخل المشفى ينتظر الافتتاح وقد رتبوا له مكانا ليتحدث إلى الناس ، مدعمة بمكبرات الصوت ثم بدأ اطلاق عيار ناري لتنبية الناس أن المحافظ سيقوم بكلمته قبيل الافتتاح :

المحافظ : (يقف أمام الناس ويتحدث) أيها الناس ، لطالما تمنينا أن يحدث هذا الأمر ويبنى هذا المشفى ، فنحن أحوج الناس إليه ، لقد كثرت الأمراض وكثر الفقراء الذين لا يستطيعون دفع رسوم العلاج

وخاصة الذين أصابتهم الأمراض العظيمة كأمراض الكلى والقلب وغيرها ، لهذا قام أحد أبناءكم ببناء هذا المشفى ، كان يحبكم بشدة و اراد أن ينجز لأجلكم ... واستمر المحافظ بالكلام..

لكن الناس صاروا يدممون بينهم ، أحد أبناءنا بنى هذا المشفى ، لا نصدق ، من سيكون بهذا الثراء نحن لا نعلم أحد يملك هذا ولو ملك لا أظنه سيتكفل ببناء هذا المشفى ..

كان أصدقاء ساري من الأطباء والمرضى وغيرهم يقفون على يسار المنصة وينتظرون بشوق أن يرحبوا بهذا الرجل الشهم الذي ساعدهم هم أيضا بإيجاد وظيفة في أحد المشافي الكبرى وكانت رواتبه مغرية والأجهزة التي سيستخدمونها رائعة حديثة ..

وقف الجميع وجعل المحافظ يقص الشريط الأحمر وبدأت الناس بالتصفيق ثم رفع الرجال ايديهم

ليسحبوا ذلك الحبل لتسقط قطعة القماش الكبيرة عن
اسم المؤسس لهذا المشفى ..

سقطت قطع القماش ، ساد الهدوء المكان...

وبينما هم مشغولون بالتأمل خرج من تحتها من
خلال البوابة الكبرى ذلك الرجل ، إنه ساري ، وقف
أمام المنبر ونظر إليهم بصمت وقال للناس :

لقد مات ساري حرقا لكن طموحاته لم تمت

في هذه اللحظة صدم الجميع بما رأوه ، ساري لم
يمت ، أنحن في حلم ؟

ودمدم آخرون هنا وهناك ، لكن كلمات ساري قطعت
لهم دمدماتهم وجعلتهم كالصم ينظرون إليه مشدوهين
لقد بدأ ساري حديثه قائلا :

عندما قررت الخروج من القرية في الليل لم أكن
لأعلم أنني لو بقيت يوما واحدا لكنت الآن جثة هامدة
محروقة ، لكن الله لطف بي فأخرجني منها ..

عندما وصلت إلى تلك البلاد كان ساري قد مات
عندكم وانتقلت روحه إلى بلاد أخرى .

عندما قررت أن أحقق طموحاتي قررتم أنتم أن
تظلوا في أحقادكم تسبحون .

عندما قررت أن أجتهد وأبذل ما بوسعي كنتم أنتم
تبصقون على قبري .

كنت أفكر فيكم طوال الوقت ، كنت أحبكم ، لكنكم لم
تحبوني ..

ثم أشار بيديه إلى أصحابه يسارا وقال :

أصحابي ، لقد صرتم أطباء وممرضين ، سأترك لكم
هذا المشفى فاعتنوا به .

ثم نظر إلى الناس وقال :

لا أعتبر أنني انجزت شيئا من طموحاتي لكني
أدركت أنني إذا أردت الراحة لا بد أن أموت وأخلف
ورائي إنجازا تذكروني به ، أما الآن فقد مت بينكم

من جديد ، وفي مساء هذا اليوم سأسافر وأعود إلى
تلك البلاد ، وإنما عدتُ إليكم لأخبركم ، أن
الطموحات ليست فقط بالجامعات والأموال والثراء ،
وأن ترتدي أفخر الثياب ، الطموحات أكبر من هذا
بكثير ، وبتعريفي الخاص ...

السعادة

**أن تذهب إلى فراشك مساءً وقد أنجزت شيئاً ما في
يومك ...**

إذا بدأتُ رحلة الأسي هذه يمكنني متابعة الطريق
لأن شخصيتي مثابرة ، لا أظنها نادمة ..

كتبها

ابراهيم الشمالان